إدريس أفندى في مصر

مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى

بريس دافين في مصر

(١٨٠٧ - ١٨٧٩)

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

● العدد ٣٢٣ ●

كتاب اليوم

أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم سعده

العدد ذو الحجة ١٤١١ هـ

٣٢٣ يوليو ١٩٩١ م

تمـــوز

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــــتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٢٠ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحـاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

باقى دول العـالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ ا ش الصحافة القــاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطـوط)

أسـعار كتاب اليوم

المغـرب	٢٠	درهم
لبنـــان	٧٥٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلـس
العـراق	٧٠٠٠	فلـس
الكـويت	٧٠٠	فلـس
السعودية	٧	ريـالات
السـودان	١٥٠٠	قـرش

فى الخـارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولنـدا	٥	فلورين
باكسـتان	٣٥	ليرة
سويسـرا	٤	فلورن
اليـونان	١٠٠	روبية
النمسـا	٤٠	فـرنك
الدنمـارك	١٥	دراخمة
السـويد	١٥	شـلن
الهنـــد	٣٥٠	كرون

تونـس	١٢٥٠	مليما	سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة	الامارات	٨	درهـم	كندا امريكا	٣٠٠	سـنت
الجـزائر	١٧٥٠	سنتيما	غـــزة	١٠٠	سـنت	قطــــر	٨	ريـالات	البرازيـل	٤٠٠	كروزيرو
سـوريا	٣٠	ل.س	ج . اليمنية	٢٣	ريال	انجلـترا	١٢٥	بنى	نيويورك واشنطن	٣٥٠	سـنتا
الحبشـة	٦٠٠	سنت	الصومال نيجيريا	٨٠	بنى	فرنســا	١٠	فرنك	لوس انجلوس	٤٠٠	سـنت
البحرين	٨٥٠	فلس	السنغال	٦٠	فرنك	المانيـا	٥	مارك	استراليا	٤٠٠	سـنت

الغـلاف : للفنان بريس دافين

« القاهرة القديمة ـ قرب باب الخلق ـ القرن ١٩ »

الماكيت : محمد عفت

إلى بهاء طاهر

الذى استحضر بفنه ذاكرة مصر العميقة .
وحدانى وُدُّهُ لنشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

* « النشر إحياء الميت كالنشور والإنشار .
وانتشار الورق : إيراق الشجر .
والمنشور الرجل المنتشر الأمر ،
وما كان غير مختوم من كتب
السلطان » . الفيروزابادى

جنيف سنة ١٩٩١ من القاهرة سنة ١٩٥٨

ا . ل

■ تمهـــــيد ■

إدريس أفنــدى (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩)

مـؤرخ أهمـله التـاريخ

لا أعرف مؤرخا مصريا ممن عرضوا لحياة مصر في القرن الماضي تحدث عن « إدريس أفندى » أو أشار إليه ، وإدريس أفندى مع ذلك شخصية فذة هامة ، لا للدور الذى أداه في سلك الوظائف الحكومية ، وإن يكن تقلب فيها سبع سنين بين التدريس والهندسة وبين القاهرة ودمياط ، بل لنشاطه الخصب في ميدان التاريخ المصرى ، وما ترك من لوحات ومؤلفات ممتازة تجلو روائع ماضينا ، ومن مذكرات صريحة تصور حياتنا الاجتماعية ، وتلقى الضوء على أسرار الحكم والسياسة التى أثرت في مصير مصر الحديث .

وما زالت أوراق كثيرة مما كتب إدريس افندى مخطوطة لم تنشر حتى اليوم ، تحفظها دار الكتب الفرنسية بباريس . وهى التى نقدم مختارات منها في الصفحات التالية .

فَمَنْ إدريس أفندى هذا الذى أهمله التاريخ الرسمى ؟

رجل ذكى مثقف يحصل العلم ويذيعه ، دون أن يكل عزمه أو يفتر إزاء ما يلقى من صعاب ، رجل كريم الطبع ، كبير الإباء ، شديد العريكة ، يعرف قدر نفسه ، ويعتد بحريته قبل كل شىء . وهذه كلها صفات أهلته بجدارة لأن يعيش مغموراً ، وإن يموت فقيراً ، وقضت عليه بأن يهمله التاريخ الرسمى . فلو كان يتقن فن التملق والزلفى والمداهنة إلى جانب ما أتقن من فنون ، ولو كان يحسن الطاعة والإغضاء ، ويعرف كيف يخفض جناح اللين للسادة ، إذن لرأى الرضا ، وترقى من رتبة إلى رتبة ، ووصل في ركاب ذلك العهد إلى المنصب العالى ، والثراء العريض ، والمكان العزيز في التاريخ الرسمى .

يعيدنا إدريس أفندى إلى ذلك العهد الذى بدأ فى مصر بتولى محمد على ، واتصل بتعاقب خلفائه من بعده . وقد عاصر إدريس خمسة من أولئك الولاة : محمد على ، وإبراهيم ، وعباس ، وسعيد ، وإسماعيل ؛ وعرف الأسرة الوالية من قريب معرفة مباشرة ، إذ اتخذه إبراهيم مربياً لأولاده ايام محمد على .

* * *

وحياة « إدريسنا » هذا قصة طريفة لا يعوز راويها ان يلجا إلى الصنعة ووسائل التشويق لاجتذاب القارىء . فهى قصة تكفى وقائعها إثارة شغفنا واهتمامنا إذا سردت سردا . وهى تجرى على ارض مصر الإفريقية ، ولكنها تجرى ايضاً على ارض أوروبا وآسية . وهى تمتد فى الزمان اثنتين وسبعين سنة منذ أن ولد بطل القصة عام ١٨٠٧ حتى توفى عام ١٨٧٩ .

وقد ولد بطل القصة فى فرنسا ، فى إقليم الفلاندر ، ولم يسمه ابوه « إدريس » ، فقد كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فراراً من جور الملك شارل الثانى ، بل عرف صاحبنا باسم بريس دافين (Prisse d'Avennes) ، وهو تحريف للاسم الانجليزى برايس اوف أيفن (Price of Aven) . وكان ابوه مفتشاً لغابات الأمير تاليران ، لقى الموت عام ١٨١٤ ، إذ تطوع لتمريض جنود نابليون المصابين بالتيفوس ، فقضت عليه العدوى . ودخل الفتى عام ١٨٢٢ ـ بعد دراساته الأولى ـ مدرسة الفنون والصنائع بشالون ، وتخرج فيها عام ١٨٢٥ بإجازة المهندس المعمارى ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره . واصغى إلى ما هتف فى صدره من طموح الشباب وحب المغامرة ، فمضى يحارب فى صفوف ثوار اليونان فى العام التالى . ومن هناك أبحر إلى الهند حيث أصبح سكرتيراً لحاكمها العام . ثم نراه بعد ذلك بقليل فى فلسطين .

ويبلغه حديث محمد على وحاجته إلى الإخصائيين الأوروبيين يستعين بهم لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الرى والزراعة ، فتصور له آماله وحميته انه سيجد على ضفاف النيل ـ تلك الأرض البكر التى ينشدها ليؤدى فيها طاقته ، ويدرك ثمرة جهده ، ـ كل ما يصبو إليه من رغد العيش ، وشرف المنصب ، والجاه الذى ينتظر العاملين فى عزم وإقدام .

وها هو ذا يلتحق بخدمة « الباشا » عام ١٨٢٩ ، فيعينه مهندساً للرى ، ثم أستاذاً للطبوغرافية فى مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفى الوقت نفسه مربياً لأبناء إبراهيم . وإذ ذاك يقدم للوالى « مذكرة فى أهم الأعمال التى يمكن تنفيذها فى الدلتا » ، ومن بينها حفر ترعة تمتد من الاسكندرية إلى القاهرة ، وإنشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم .

هكذا تبدأ القصة بداية سعيدة : فالأيام تبتسم لصاحبنا ، وتعده خير الوعود . ولقد غدا يشق طريقاً ناجحاً موفقاً بفضل ذكائه ، وقريحته الفطنة إلى الحياة العملية ، ومثابرته الشديدة . ولكنه بالرغم من هذا كله ـ أو لهذا كله ـ لا يلبث حتى يصطدم هو وعبد الله « بك » ناظر مدرسة الخانكة . وقد روى ابنه تلك الحادثة ، قال :

« ذات صباح ـ وكان ذلك يوم ٢١ من يولية سنة ١٨٢٩ ـ أرسل « عبد الله بك » رئيس المعسكر فى طلبه وكلفه طبع موسيقى الكتائب نظراً لمعارفه الخاصة ، ولعدم وجود من يقوم بهذا العمل ؛ فرفض بريس محتجاً بأن هذه المهمة لا تدخل فى دائرة اختصاصه . فغمره فى الحال سيل من الشتائم البذيئة ، وصدر الأمر بأن يكبل بالحديد إلى أن يعدل عن رأيه ويمتثل . ولما ظل رابط الجاش ولم تؤثر فيه جميع تلك التهديدات ، احتد غضب « البك » ، واصدر أمراً همجيا بجلده بالكرباج .. وعاد بريس إلى بيته ، فأرسل استقالته إلى نظارة الحربية ، ثم وضع فى حزامه خنجراً ومسدسين ، ومضى يحمل بنفسه استقالته إلى « البك » . وإذ دخل عليه ألقاها تحت قدميه قائلا له : إنه بهذه الاستقالة التى أرسل منها نسخة إلى القاهرة قد استرد حريته ، وإنه خليق بأن يرميه بالرصاص فى رأسه دون أن يستطيع واحد من حرسه أن يمنعه ، إذا هو حاول ـ وإن كان ناظراً ـ أن يعتدى عليه . وشده الناظر فلم يحر جواباً . أما بريس فامتطى حصانه ، وبلغ نظارة الحربية حيث اعتذر إليه المسئولون » .

غير أن تصرفاً من هذا القبيل لم يكن من شأنه فى ذلك العهد أن يفتح سبيل التقدم والترقية أمامه ، ولا أن يحقق له ما كان ينشد على ضفاف النيل من رغد المستقبل ، وشرف المنصب ، والجاه الذى يكافىء جهد العاملين فى عزم وإقدام . منذ ذلك اليوم ، انخفض نجم بريس فى سماء مصر . نقلوه إلى دمياط استاذا للتحصينات فى مدرسة المشاة . ولكن

همته لم تفتر ، بل راح يستطلع شمالى الدلتا ، لا سيما منطقة بحيرة المنزلة ، ووضع « مذكرة فى تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها » قدمها كبير الرجاء إلى الوالى ، إلا انها لم تجد حظوة لدى جنابه العالى .. ولا نعلم من أمر پريس فى السنوات التالية إلا ما بذل من نفسه للمرضى والمصابين فى وباءى الكوليرا والطاعون اللذين فتكا بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ ، فقد نهكه العناء حتى أشرف به على الموت .

هناك خالط الشعب المريض الجائع البائس ، وفهم نفوس المصريين ، ولمس تحت الأسمال التى ألقاها عليهم الحاضر الوخم تلك الصفات الكريمة العريقة التى سجلتها حضارتهم من قديم . وأقبل عليهم فى شغف ، فتعمق مجتمعهم ، ودرس تفاصيل حياتهم ، وأتقن لغتهم . ودعاه الجميع باسمه الذى تحول من « پريس » إلى « إدريس » : « إدريس أفندى » .

ودفع إدريس أفندى اهتمامه بحضارة هذا الشعب إلى دراسة الهيروغليفية ، وكان شامپليون قد حل رموزها منذ سنوات قليلة . وملأت حياة المصريين حياته ؛ فهو يفكر فى ماضيهم كما يفكر فى حاضرهم وفى مستقبلهم . وما باله يظل محدودا بواجب ضيق صغير ؟ إن الإنسانية أعرض من أن يربطها سلك الوظيفة الرسمية . وإنه ليزهد فى هندسة الرى الحكومية وتدريس علم عقيم ، فيقدم استقالته عام ١٨٣٦ . ليفرغ إلى ما بات يستغرقه من التاريخ لهذا المجتمع الذى يعيش فيه .

* * *

ها هو ذا فى زيه العربى ينتقل بين الفلاحين من قرية إلى قرية ، ومن الدلتا إلى الصعيد ، ومن الصعيد إلى النوبة . ها هو ذا يقف مبهوراً أمام بوابة أبى سنبل الرائعة . وها هو ذا فى عام ١٨٣٨ يستقر فى الأقصر ، موجهاً جهوده إلى دراسة منطقة « طيبة » . أو يستقر حقا ؟ إنما حياته فى تلك الأثناء نضال متصل كل يوم ضد عجرفة المدير ، وتسلط موظفى الباشا . واستشراء عصابات اللصوص . ولكنه يحب العراك والكفاح والعيش فى خطر . عليه إذن أن يحمى نفسه ، ويحمى رجاله . بل ويحمى تلك الآثار العريقة من معمل البارود الذى أنشاه الباشا بالكرنك .

ولم يكن بد من أن يلتحم هو والسلطة الغشوم مرة أخرى ، فى مارس ١٨٤١ : فقد قبض ناظر الأقصر على واحد من رجاله بغير وجه حق ،

وأمر بضربه بالعصا ، ورفض إطلاق سراحه ، فاحتد « إدريس أفندى » ، وضرب الناظر . وهنا تقوم قيامة الناظر التركى وخفره ، ونترك لابن إدريس أفندى إتمام رواية الواقعة ، فهو يقول :

« على الرغم من أنه كان بمفرده ضدهم جميعاً ، فقد أفلح فى أن يذود عنه أولئك الذين أخذوا بتلابيبه ، إذ ضربهم فى وجوههم بقبضة يده ، ولكنهم تكاثروا عليه بعد ذلك من كل جانب . وحين هوت عليه العصا الأولى أمسك عن استخدام سلاحه . غير أن العِصِّىَ تتابعت بلا انقطاع ، فبدد وقعها صوت ضميره المتردد ، واندفع شاهراً خنجره على ذلك التعس الذى ضربه فى تلك اللحظة ، فجرحه جرحاً بليغاً ، وأصاب اثنين آخرين إصابة أهون . وإذ ذاك هجم عليه الجميع ، وكبلوه ، وأمر الناظر بحبسه . وبينما هم يكبلونه ، أتى لنجدته ـ بمجرد أن بلغه الأمر ـ فرنسى سائح كان يقيم عنده أياماً ، هو « الكونت دى فرچين » . فطوقوه فى الحال ، وسحبوه من لحيته إلى السجن . حيث وصل دامى الجسم ، هو والخدم الثلاثة الذين كانوا فى صحبته ، ثم قيدوهم جميعاً بالسلاسل » .

وفى قاع ذلك السجن المظلم ، ظل إدريس أفندى وضيفه ورجالهما أربعة أيام وأربع ليال ، وسط الأوساخ العفنة التى اختلطت بتراب الأرض ، لا يبلغهم نور ولا هواء ، بل لا كسرة من خبز ولا جرعة من ماء ، مشاطرين فى هذا كله بلاء نحو من عشرين فلاحاً فقيراً ، لم يكن لهم من ذنب إلا فقرهم الذى لم يختاروه وعجزهم عن دفع الضرائب للباشا . ولولا توسط الرسام « نستور لوت » ، معاون شامبليون فى دراسة الآثار ، وقد أقبل فى مهمة رسمية ، ما أفرج عنهم .

ويزعم الأديب الفرنسى ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذى زار مصر فى ذلك العهد وعرف إدريس أفندى أن إدريس أفندى قد انكسر فى هذه الوقعة فكه وإحدى ذراعيه .

ونحن نشك فى صدق رواية ماكسيم دوكان ، فهو شخص مشهور فى الأدب الفرنسى بنفسية خاصة تنحرف به إلى المبالغة والتهويل وتشويه الحقيقة فى سبيل التأثير على القارىء ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن إدريس أفندى ظل فى الأقصر مرفوع الرأس يواصل أبحاثه بعزيمته المعهودة التى لا تنثنى ولا تكل .

وقد ادت ابحاثه في تلك الفترة بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٣ إلى نتائج يعرف مؤرخو الآثار المصرية أهميتها . فقد يكفيه فضلا أنه حفظ بعض آثار « طيبة » العريقة من الفناء . وكيف كان ذلك ؟ ذات يوم ، لسد حاجة طرأت على معمل البارود بالكرنك ، اقبل العمال يقتطعون الأحجار من الأعمدة الضخمة القائمة في جنوب الهيكل الجليل ، أعمدة « حار محب » التي كانت تعرف إذ ذاك باسم « أعمدة حوريس » .

وكان إدريس افندى أول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنجوتة عليها من عهد أخناتون ، ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستور لوت .. وهو يكتب (في يناير سنة ١٨٤٠) لعالم الآثار الانجليزى ويلكنسون عما حل بها فيقول :

« كانت الأحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم ، فلاختصار العمل عمدوا فى تكسيرها إلى استعمال البارود . وحين وصلت إلى المكان ، كانوا يتأهبون لإشعال بعض الذبالات . فاستمهلتهم لحظات ريثما ارسم أبا هول منحوتاً على كتلة طولها متران تقريباً وقد غمرته أشعة « أتون رع » . ولم أكد أتم رسمى حتى تطاير الحجر شظايا ؛ ولكن لحسن الحظ بقى رأس ذلك الفرعون المعبر ـ وإن كان قد تشقق ـ على قدر من السلامة أتاح لى أن أطبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تهذيب رسمى على مهل » .

وقد يكفيه فضلا بين علماء الآثار المصرية أنه كشف في معبد « خونسو » اثنتى عشرة غرفة ، وأنه كشف البردية الهيراطيقية التى تحمل اليوم اسم بردية « بريس دافين » . ولكنه لم يقف أعماله فى ذلك الميدان عند هذا الحد . بل واصل أبحاثه في شغف ومثابرة دائماً .

كان الصعيدى العريق رفاعة الطهطاوى على إثر عودته من بعثته فى فرنسا ، حيث أقام خمس سنين أيقظ فيه خلالها حنينُه إلى بلده واطلاعه على أوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنيا متأججاً مستنيراً ، قد طالب محمد على بحماية آثار مصر القديمة ، فصدق الوالى على أمر صاغه رفاعة ينص على منع التصرف فى الآثار . غير أن الوالى فى حاجة إلى احجار لبناء معامل السكر من ناحية ولتموين معامل البارود من ناحية أخرى ، فيفرض على الفلاحين أن يقدموا له عن كل فدان مزروع قنطاراً من الأحجار ، ولا بأس على فلاحى الصعيد من أن يقتطعوا له الأحجار من

هذه الأعمدة الضخمة والتماثيل الكثيرة التى تملأ منطقتهم ؛ فتلك أحجار مشذبة أصلح للبناء وأقرب منالا من بطون الجبال ! بل كان رجال الإدارة فى الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل الباشا . ويرتاع لذلك علماء الآثار فى أوروبا ، فيكتب ويلكنسون فى لهفة لإدريس أفندى يسأله « معلومات عن التهديم الذى حدث فى الكرنك » ويرجوه أن يبادر ليرسم « إذا لم يكن قد فات الأوان ، أساطير الفراعين القدماء التى يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة فى هذه المعالم » ، ويهرع ليبسيوس على رأس بعثة بروسية كانت قد اجتثت منذ سنوات روائع النقوش والرسوم من جدران مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك ونقلتها إلى برلين ، وهو يهرع هذه المرة لينقل « غرفة الملوك » الشهيرة فى الكرنك (من آثار تحوتمس الثالث) ، فيسبقه إدريس أفندى بأيام ، ويبذل أعنف الجهد حتى يفصل أحجارها ، ويحملها إلى باريس حيث يحفظها متحف اللوفر .

* * *

ويعود إدريس أفندى إلى مصر عام ١٨٥٨ ، أى فى أثناء ولاية سعيد ، فيجوب البلاد من جديد مسجلا مشاهداته وملاحظاته ، مصوراً المعالم والآثار بالآلة الفوتوغرافية ، أو راسماً إياها بقلمه وألوانه ، أو صانعاً لها قوالب متقنة ، حتى يجتمع له من ذلك كله محصول ثمين من المعلومات الجغرافية والبشرية والتاريخية والفنية واللغوية والاجتماعية ، مادة غزيرة هى التى استمد منها فيما بعد كتبه القيمة عن الآثار المصرية ، وغذّى بها الصحف والمجموعات الكثيرة التى راح ينشرها للتعريف بمصر .

وقد وقف أيامه وجهده على هذه المهمة التى غمرته واستغرقته . عرضت عليه الحكومة الفرنسية منصب السفير فى تركيا ، فاعتذر مؤثراً مواصلة منشوراته ومطبوعاته التى لم تكن لتمنحه مثل جاه السفير ومرتبه . وإنها لتضحية تعرفها له مصر اليوم . وقد أصبحت كتبه عن الفن نادرة جدا ، وفى مقدمتها كتاب « الآثار المصرية » (Les Monuments Egypticns) الذى يضم خمسين لوحة من القطع الكبير ، ويعتبر مكملا لكتاب شامپليون الذى ظهر عام ١٨٤٥ بعنوان « آثار مصر والنوبة » Mouments de l'Egyptc et de la Nubic. أما « تاريخ الفن المصرى ،

مأخوذاً عن الآثار ، منذ أقدم العصور إلى الحكم الرومانى « Histoire de l'Art Egyptien d'Après les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu' à la domination romaine. فهو « أطلس » رائع يضم فى مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبر . وله أطلس آخر من مائتى لوحة فى ثلاثة أجزاء عنوانه « الفن-العربى » ، مأخوذاً عن آثار القاهرة منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر »
(l'Art Arabe, d'après les Monuments du Caire depuis VII^e siècle jusqu' à la fin du XVII^e siècle.)

إن دراسة الآثار المصرية والعربية التى كانت تحبو فى ذلك الوقت ، مدينة لهذا العالم الفنان بتقدمها خطوات موفقة إلى الأمام : فرسوم شامپليون وأعوانه كانت رسوماً مجردة ، فاترة ، هندسية ، لا تؤدى إلا الخطوط والأبعاد والأحجام ، أما رسوم إدريس أفندى أو پريس داڤين فقد بعثت الحياة النابضة الملونة فى الماضى السحيق وأضافت إلى صوره المعروفة صوراً مجهولة .

ولم يهتم بالآثار العربية قبل إدريس أفندى أو پريس داڤين إلا مهندس معمارى من أهل مرسيليا سبقه إلى زيارة مصر ويدعى « پاسكال كوست » رسم فى دقة موضوعية جافة أيضاً عمارة الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ولكن إدريس أفندى أو پريس داڤين نظر من بعده إلى المساجد والزخرفات والأثاث نظرة إنسانية جلتها فى مظهرها ذلك الأليف القريب من نفسه .

وأما مقالات إدريس أفندى أو پريس داڤين وأبحاثه الكثيرة فى الصحف والمجلات والمجموعات الدورية فيضيق هذا المقام عن الإحاطة بها : ففى هذا كله أنفق الرجل حياته . واضطرت زوجته إلى أن تبيع بعض الانجليز جزءاً كبيراً من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومكتبته الثمينة ، وهو على فراش الموت لا يدرى ماذا يدور من حوله .

ولعل أهم أوراقه مع ذلك هى التى بقيت فى فرنسا ، وآلت إلى دار الكتب بباريس ، أوراق يضمها اثنا عشر مجلداً ، وتتصل بدراسة مصر من مختلف النواحى . وقد استوقفتنا بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبلغ كل منها نحو أربعمائة صفحة ، تحوى كثيراً من قصاصات الجرائد المعاصرة ، وكثيراً من الصفحات المخطوطة ، وكثيراً

من الرسوم ، وأحدها بعنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » (Politique et administration de l'Egypte moderne) والآخران بعنوان أخلاق وعادات » (Moeurs et coutumes) .

ويتضح للناظر في هذه المجموعة الكثيفة التي تتناول وصف مصر الحديثة . أنها المادة الأولية التي أعدها إدريس أفندي لإنشاء كتاب جامع عن مصر كما عرفها . ونحن نجد بالفعل مشروع ذلك الكتاب وخطته في الصفحات الأولى من أحد هذه المجلدات . وتنبئنا تلك القائمة للموضوعات بأن المؤلف قد انتوى تصنيف كتاب كبير من عدة أبواب وفصول :

فالباب الأول عن « القطر » وينقسم إلى فصل عن « المناخ » ، وفصل عن القاهرة والاسكندرية ، وفصل عن مجرى النيل ، وفصل عنوانه « مصر كما هي » .

والباب الثاني عن « الناس » ، يفتتحه فصل عن سكان مصر والأجناس التي اختلطت على هذه الأرض ، يليه فصل عن النساء المصريات ، ثم فصل عن الرجال وقناعة الشعب ودفع الضريبة بالعصا . ثم فصل عن الفلاحين والصناع وفصل عن الأوروبيين في مصر .

والباب الرابع وصف للأسرة والزواج والحياة العائلية .

والباب الخامس عن « الحكومة والإدارة » فيه فصل عن الحكومة ، أى النظار والموظفين ، وفصل عن التقسيم الإدارى ، وفصل عن العدالة المفقودة . وفصل عن الجيش والبحرية والتجنيد ، وفصل عن التعليم .

وهناك باب سادس عن الدين ، أى الإسلام والمسيحية .

وباب سابع عن المالية والضرائب وميزانية الإيرادات والمصروفات والديون التي تورط فيها إسماعيل .

ثم باب أخير عن الوالى ينقسم إلى فصل عن حياته الخاصة ، وفصل عن حياته العامة وسياسته الخارجية والداخلية .

* * *

في هذا الاستعراض العاجل لعناصر الكتاب الذى أعد مادته إدريس أفندى ولم يفرغه في قالبه الأخير ما يصور لنا مدى غزارة ما تحويه تلك الأوراق الشعثاء . وقد اخترنا من بين تلك الأوراق المخطوطة صفحات طريفة عن المجتمع المصرى وولاة مصر في القرن الماضى . صفحات

مطوية لم يتح لها أن تنشر حتى اليوم لأسباب كثيرة لعل في مقدمتها تلك الصراحة التي تحدث فيها إدريس أفندى عن أسرة محمد على ، وتلك الجرأة في إذاعة أسرار القصور العامرة بألوان المجون والحماقة والسرف .

ومن هنا كانت مذكرات إدريس افندى تختلف عن كتب المؤرخين الرسميين ، بل تعارضها في أغلب الأحيان . ولقد كان هذا الرجل الحر المستقل يعي ما تؤدى إليه مدائح الأقلام المرتزقة من تشويه الحقيقة في التاريخ ، ولذلك توخى دائماً ذكر الوقائع ، ووصف العصر والقصر وصف شاهد عيان .

ولكل شاهد عيان موضع خاص يقف فيه ليرصد الأحداث والأشخاص والأشياء . وقد رأينا كيف تنقل إدريس أفندى سبعة عشر عاماً في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ومن بيئة « الباشوات » الحاكمين إلى بيئة الشعب المحكوم .

كيف عرف أهل القصور والدواوين من ناحية ، وكيف عاش بين أهل الدلتا والصعيد من ناحية أخرى ، ناظراً هنا وهناك ببصيرة البحاثة الناقد ، مشاطراً أهل الوادى حياتهم ، مصطدماً بالسلطة الغشوم كلما مست حريته واستقلاله وكرامته . نظرته إذن هي نظرة الدارس الممحص ، والأخ العاطف على إخوة له في الإنسانية جار عليهم الدهر ، والرجل الواقف بالمرصاد لرذائل السلطان المستبد .

ولهذا كله كانت مذكرات إدريس أفندى وثيقة تاريخية قيمة للمهتمين بحياة مصر الحديثة . وهي إن لم تكن تاريخاً كاملا لقرننا التاسع عشر ، فإنها تدعونا إلى إعادة النظر فيه وكتابته بأقلام واعية محققة مخلصة للعلم وللوطن ، لا كما كتبته أقلام ناعمة معطرة لحساب اسرة أجنبية عاثت في بلادنا فساداً ، وضيعت حقوقنا بين دول العالم ، وسخرت آباءنا سخرة العبيد .

وفي مذكرات إدريس أفندى - فضلا عن قيمتها التاريخية - طلاوة القصة ، ودقة الملاحظة ، وصدق التصوير والألوان ، وشجون الحديث والألفة والخبرة والثقافة ، وسعة الأفق الإنسانى ، وإحساس مرهف بالحياة الكامنة في تفاصيل مجتمعنا المصرى ، وفهم عميق لروحنا القومى الأصيل الذى نحيي اليوم بعثه ، وانطلاقة من إساره ، وتوثبه إلى أفق الحرية والكرامة الموفورة .

وإذا اجتمعت هذه الصفات أو شيء منها في أوراق مخطوطة مطوية مهملة ، كان ذلك خليقا بأن يخرجها إلى النور .

لقد انصف إدريس أفندى مصر ، فمن حقه عليها أن تنصفه .

■ ■ ■



نشرت صفحات من هذا الكتاب في مقالات الدكتور انور لوقا التالية :

— « إدريس افندى مؤرخ اهمله التاريخ » . المجلة ، عدد ١٥ مارس ١٩٥٨ ، ص ٤٧ ـ ٥٩ .

— « إدريس افندى وظالم باشا » . الهلال ، عدد ٦٦/١١ ، نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٦ ـ ١٥ .

— « من مذكرات إدريس افندى : محمد على وأسرته صفحات مجهولة » . المجلة ، عدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ ـ ٢٦ .



دار مصرية من الداخل ـ لوحة
منشورة فى كتاب إدريس أفندى ـ الفن العربى

تقـــــديـم :

إدريـس أفنـدى وظـالم بـاشـا

« إدريس أفندى » مستشرق فرنسى يكاد يكون مجهولا من الكثيرين ، برغم مواقفه المجيدة وكتاباته الجريئة وفنه البارع ، بل لعله ظل مغمورا لأنه أنفق حياته فى البحث عن فنون حضارتنا العريقة ! ولد عام ١٨٠٧ ، فى مقاطعة الفلاندر بفرنسا . ولم يسمه أبوه « إدريس » إذ كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فرارا من جور الملك « شارل الثانى » ، بل عرف باسم « بريس داقين » Prisse d'Avennes وهو تحريف فرنسى للاسم الانجليزى Price of Aven وكان أبوه مفتشا للغابات التى يملكها الأمير تاليران . وحين أصيب جنود نابليون الذين دوخوا أوربا ، بالتيفود عام ١٨١٤ ، تطوع الأب لتمريض إحدى الفرق ، فقضت عليه العدوى .

* * *

وفى عام ١٨٢٢ دخل : بريس مدرسة الفنون والصنائع بمدينة « شالون » ، وتخرج فى التاسعة عشرة من عمره مهندسا معماريا . وكانت مغامرات نابليون قد غيرت مفهوم الحدود الجغرافية فى مخيلات الشباب ، فدفع الطموح صاحبنا إلى الانخراط فى صفوف ثوار اليونان الذين نهضوا ينتزعون استقلالهم من جيوش السلطان وإبراهيم باشا .

* * *

ثم أبحر إلى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها العام . وعاد بعد ذلك بقليل إلى فلسطين . وهناك بلغه أن « محمد علي » في حاجة إلى أخصائيين أوربيين لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة ، فالتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ ، مهندسا للري في أول الأمر ، ثم أستاذا للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفي الوقت نفسه مربيا لأبناء إبراهيم .

ولكنه لم يلبث ، لاعتداده بنفسه ، ولشدة ابائه وشممه ، أن اصطدم بناظر المدرسة التركي المتغطرس « عبد الله بك » . وبعد ملحمة عنيفة هوى فيها الكرباج على جسمه ، فابرز خنجره ومسدسه متحديا القوة بالقوة ، قدم استقالته ، فنقله ناظر الحربية إلى دمياط ، أستاذا للتحصينات في مدرسة المشاة . وفتكت بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ أوبئة الكوليرا والطاعون ، فانبرى « بريس » لتمريض المصابين وصارع الموت الذي أوشك أن يصرعه .

واغنت تلك التضحية نفس الرجل الكريم .. لقد عاشر شعبا مريضا جائعا بائسا ، وهو بعينه هذا الشعب الذي صنع الحضارة منذ فجر البشرية .. وأحب « بريس » المصريين ، وفهم مشاكلهم ، وميز جوهر صفاتهم تحت الأسمال التي ألقاها عليهم الحاضر المظلم ، وتعمق مجتمعهم ، وتأمل تفاصيل حياتهم ، وتكلم لغتهم ، واهتم بماضيهم ، وانغمر في هذا كله حتى ضاقت على إنسانيته المتفتحة حدود الوظيفة الصغيرة . فاستقال عام ١٨٣٦ ، وتحرر من القيود الرسمية ، وتفرغ لدراسة الهيروغليفية ليجتلي تاريخ هذا المجتمع الذي يعيش فيه ، وكيف تطور من حال إلى حال .

وارتدى الزي الشرقي ، وسمى نفسه « إدريس » بدلا من « بريس » وجاب قرى مصر متنقلا من الدلتا إلى الصعيد ، بين الفلاحين الذين يأنسون إليه ويلقبونه بـ « إدريس أفندي » . وبعد زيارة « لأبي سنبل » أقام في الأقصر لدراسة « طيبة » ، ولحماية

ما أمكن من أعمدة الكرنك التى أقبل عمال الباشا يكسرونها لتغذية معمل البارود . ولم يكن بد ـ وهو رجل شديد العريكة حريص على كرامته دائما ـ من أن يصطدم مرة أخرى ، بناظر الأقصر التركى وخفره .

لقد أدت أبحاث « إدريس أفندى » فى التاريخ المصرى القديم وفى تاريخ العمارة العربية إلى نتائج كبيرة يعرف المختصون أهميتها ، ودورها فى تقديم تلك الدراسات . وإذا لم يتسع المقام هنا لعرضها ، فحسبنا أن نشير إلى « الألبومات » الضخمة الثمينة التى سجل فيها الفنان بالرسوم الدقيقة والألوان المتقنة روائع الفن المصرى خلال مختلف العصور . وجمع « إدريس أفندى طوال السبعة عشر عاما التى أنفقها على ضفاف النيل ـ وكان قد سافر إلى باريس أثناء حكم عباس وعاد بعد تولى سعيد ـ مادة غزيرة عن مصر الحديثة ، استمد منها المقالات التى راح ينشرها فى الصحف والمجموعات العلمية ، مؤثرا مواصلة منشوراته ومطبوعاته على منصب سفير فرنسا فى تركيا ، الذى يقال ان حكومة نابليون الثالث عرضته عليه . وحينما اشتد عليه المرض فى فرنسا عام ١٨٧٩ ، اضطرت زوجته إلى أن تبيع لبعض الانجليز جانبا من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومجلدات مكتبته النادرة .

* * *

على أن أهم أوراقه بلا شك هى التى بقيت فى فرنسا ، وآلت إلى قسم المخطوطات بدار الكتب بباريس . هناك اثنا عشر مجلدا خلفها « بريس دافين » ، تتناول دراسة مصر من مختلف النواحى . وقد طالعت بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ، يحوى كل منها نحو أربعمائة صفحة ، وتضم خليطا من الرسوم والمذكرات المخطوطة وقصاصات الجرائد المعاصرة ، ويحمل أحدها عنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » والآخر عنوان « عادات واخلاق » . ويتضح للناظر فى هذه المجموعة الشعثاء انها المادة

الأولية التى أعدها « إدريس أفندى » لإنشاء كتاب مفصل عن مصر كما عرفها ، ولكن الأيام لم تمهله حتى يفرغه فى قالبه الأخير .

ولن نناقش هنا فكرة هذا الكتاب الضخم الذى لم يكتبه صاحبه وحسبنا أن نعى ما سجله هذا الرجل الحر المستقل من أسرار الولاة الذين عاصرهم وعاشرهم ، فقد اتصل بهم ـ من محمد على إلى إسماعيل ـ ووصف أساليب حكمهم وخفايا حياتهم وصف شاهد عيان .

ويتميز حكم « محمد على » فى مذكرات « إدريس أفندى » بطابع القسوة والظلم والإرهاب . فإن منظر تعذيب أفراد الشعب تعذيبا رسميا منظما كان يتكرر فى كل يوم ، فى كل قرية ، وفى كل مدينة ، بل وفى أسواق القاهرة . وقد صور « إدريس أفندى » موكب « المحتسب » وعدالته الهمجية فى هذه السطور :

« يطوف المحتسب ، وهو الأغا المكلف بالإشراف على الأسواق ، بالمدينة على صهوة جواده ، يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة ، فيستعرض الموازين ، وأثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم ، ومن أى بائع كان ذلك ، ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء فى الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا فى الحال . فيقبض خدمه على المطفف ، ويطرحونه أرضا ويشدون ساقيه فى « الفلقة » ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مسلحين بالكرابيج مائتى أو ثلثمائة ضربة يعدها الأغا فى هدوء على حبات مسبحته الوردية . ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى ، ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز ما لديه . وفى نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه

إلا محمولا أو متوكا على آذرع بعض آصدقائه أو بعض المتفرجين .. وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها ، وتوقيع العقاب في أكثر الأحيان يوحيه التحيز . فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة في ابتزاز الأموال آو اغتنام السلع ، فان قواسيه وخدمه يفعلون ذلك فى أغلب الأحيان » .

ويتحدث عن تعذيب الفلاح ، فيقول :

« ان الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، أصبح فريسة ضغط جميع موظفي الوالي ، من أعلاهم إلى أدناهم . فإذا كان الفلاح يملك قروشا ، طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، فإذا قاوم كان جزاؤه الكرباج أو السجن . ولا يستطيع اى إجراء أن يفلته من العقاب البدنى ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع آن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه » .

■ ■ ■

ثـــورة الصعـــيد

ويقول « إدريس أفندى » ان الفلاحين أطلقوا على محمد على لقب « ظالم باشا » لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدى مأموريه ، فمن الكى بالقرميد الأحمر المحمى فى النار إلى تسمير آذانهم ، إلى تمزيق آجسامهم بضرب الكرباج .

ويروى ثورة أهل الصعيد التى أدت إليها تلك القسوة : بدأت هذه الثورة على الوالى ورجاله في بلدة « دراو » فى أوائل عام ١٨٢٤ . وكانت إحدى فرق الجيش فى طريقها إذ ذاك إلى « سنار » فانضمت إلى الفلاحين . وبلغ عدد الثائرين نحو عشرين الفا . غير انهم تشتتوا بعد بضع معارك لعدم تنظيم صفوفهم تحت امرة قائد خبير .

وكان نزق الباشا وحده هو مصدر الظلم أحيانا . وإدريس يورد لنا هذا المثل على استبداد يشتط إلى حد عجيب :

« من بين النباتات النادرة التى وردت لمحمد علي من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فأزهرت وأينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد علي للمرة الأولى أنها جميلة ، وأمر بأن توضع النبتة في صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التى تظلل كشكه . وهنا اجترأ البستانى على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب الوالى جبينه واقسم أن يدفن حيا ذلك الأرعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التى استأثرت فجأة بإعجابه . وفي اليوم التالى كانت الداليا موضوعة بعناية في صندوق عريض في ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد إخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجيء بالبستانى ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بأن النبات لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، أخلي طرفه » .

■ ■ ■

ظـــالم بــاشــا

ويتحدث إدريس أفندى عن مكان القانون فى دولة محمد على ، فيقول :

« اننا نتورط فى الخطأ إذا قلنا أن فى ذهن الباشا أفكارا منطقية عن العدالة وأن فى قلبه حبا حقيقيا لها ، فالقانون الذى أذاعه محمد على ، والذى أطنب المطنبون فى الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة ، فى الأحوال التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه » .

ويستطرد إدريس أفندى قائلا : « ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود ان يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء فى تحصيل مرتباتهم وأجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك ـ للحصول على نقود ـ على أن يبيعوا بثمن بخس السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ » .

« ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على فى سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته فى التلفيقات المالية : فبعد أن أخذ الأوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمرت العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود ، وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنه هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا ، وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر ، وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة ، ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب » .

لقد رأى إدريس أفندى فى وضوح أن « وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شىء يتناقض مع تلك الميول » ، ورأى محمد على يستوحى المثل القائل : « انما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تسحقه لكى تخرج منه الزيت » . ويعود إلى رثاء المصريين فى صفحة أخرى :

« أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة فى أيدى رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهى ، والتصرف فى قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم . وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا ردىء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير

من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرباج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح فى السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له ان قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .. وإذا ازداد رخاء المحصول فى عام ، ازداد بؤس المصريين لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا فى سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما كانت جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها » .

وينتهى « إدريس أفندى » إلى أنه لا شك أن « محمد على » رجل فذ ، ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها « من الخطأ أن يقال ان مصر قد تمدنت ، فهى لا يمكن أن تتمدن فجاة بهذه الصورة . انما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن أن تأتى ارتجالا فى ربع قرن ، وإذا لم ننظر إلا للنتائج فى تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة من أن تحظى به .

لم يعرف محمد على فى حياته أى تربية أولية ، فورطه فى الخطأ اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له أنه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع - وكان ذلك اقصى ما يبلغه - أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها . ولكنه لا يمكن أن يصنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة ، والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى ينمى ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوربية تضج باسمه ، وانه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول . وان الناظر إلى جميع الأعمال التى زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلي المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغى أن يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلي إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب الدفاع من ناحية أخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن فى نفوس الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه » .

فهل سعدت مصر بعد زوال حكم محمد على ؟ لقد تعقب إدريس أفندى خلفاءه على عرش مصر . عرف إبراهيم باشا معرفة مباشرة ، ووصف لنا همجيته وشراسته ، وأورد من الوقائع الثابتة ، المؤرخة ما يدحض آيات المديح التى رددها المؤرخون الرسميون . ثم تحدث إدريس عن سياسة عباس الغريبة ، وعن مباذل سعيد وإسماعيل .

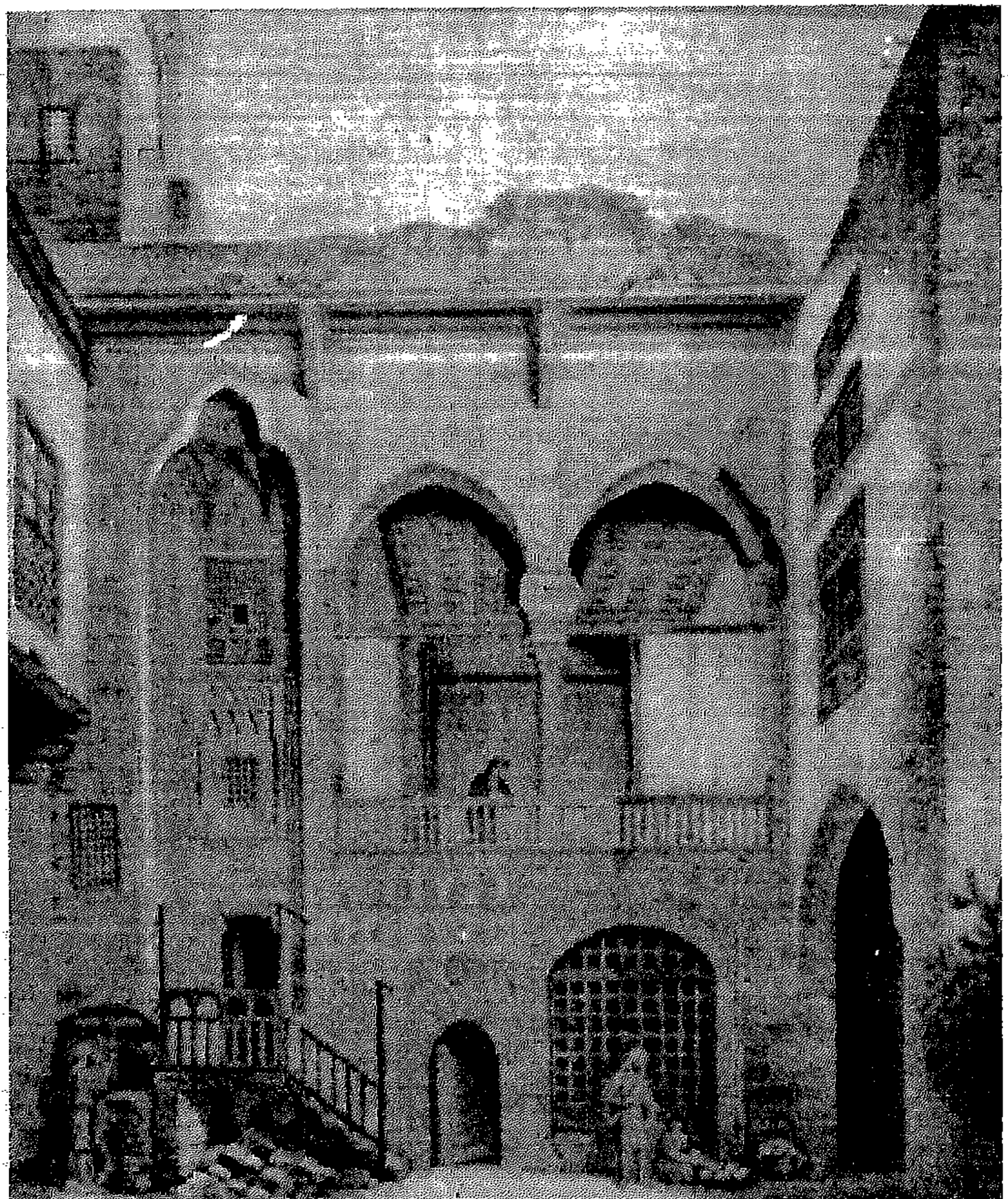
ان مذكرات « إدريس أفندى » إذن وثيقة خطيرة ، لابد من الرجوع إليها لتصحيح تاريخنا الحديث .. ولقد جمعت - فضلا عن سجل سرى لخفايا أسرة « ظالم باشا » - صفات فنية وإنسانية هيهات أن تجتمع لدى كاتب واحد . ففيها طلاوة القصة ، وبراعة التصوير ، وغزارة الثقافة ، ومشاركة وجدانية عميقة لحياة أجدادنا ، وهى حياة كادت تنسينا واقعها كتب أطنبت فى تمجيد الولاة وأغفلت وجود الشعب . لقد حان لجيلنا المتحرر أن يسمع لهذا المؤرخ الثائر .

---

* الهلال ، نوفمبر ١٩٥٨

■ الجزء الأول ■

صور من المجتمع المصرى في القرن التاسع عشر



فناء بيت مصرى فى القرن التاسع عشر

نقلا عن كتاب (الفن العربى) المجلد الأول

القاهـــرة

لا أعرف مدينة تتقابل فيها الأضواء تقابلا أروع منه في القاهرة . فإن السائر في الشوارع الضيقة بتلك المدينة التي تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى ، يروعه في كل لحظة مشهد الترف المسرف إلى جانب الفقر المدقع . وتتصادم في القاهرة البهجة والآلام دائما ، فكثيرا ما رأيت موكب عروس تتقدمه جوقة الموسيقيين يلتقي بموكب جنائزي دون أن يقطع الموسيقيون عزفهم ودون أن يقطع المشعوذون لعبهم ، بل ورأيت في كل مرة تقريبا أعضاء الموكبين يتبادلون الحديث في ألفة الإخوة والأخوات .

ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الأجناس التي تضطرب في تلك الشوارع المزدحمة . فهناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة ، الأبيض ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين ، والزنجي المنخفض الجبهة الغليظ الشفتين ، والعربي والتركي والشركسي والهندي والحبشي . كل أولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ، ويتكلمون لغات برج بابل .

■ ■ ■

مناظر من الأسواق

فى كثير من الأحيان ، عندما أخرج لقضاء أمورى . أدخل قهوة وهناك أتسلى بتأمل المشاهد المتنوعة التى تجرى .أمام أنظارى . أحب أن تحيطنى التموجات الخفيفة التى ينشرها « تمباك » نارجيلتى أو غليونى الطويل ذى المبسم العنبرى . والدخان هنا لا يثير سيلان اللعاب المنفر الذى يجعله كريها فى أوربا ، بل يجد المرء لهذا الدخان ـ وقد أصبح رقيقا جدا لمسيره فى أنبوبة طويلة ، أو لأنه قد تنقى فى الماء ـ طعما يبحث عنه دون جدوى فى كل مكان آخر . وإنه ليبقيه وقتا طويلا فى فمه ثم يطرده قليلا قليلا وهو يتذوق عذوبة تبغ « صور » أو « اللاذقية » أو هذه الأنواع المكيفة الأخرى التى تتفنن فيها الشعوب الشرقية .

أجلس وفى يدى غليونى ، وفى الأخرى فنجان القهوة ، وألاحظ اللوحة الحية ، الصاخبة ، المتنوعة دائماً ، يقدمها لى الجمهور الذى يتجمع ويضغط بعضه بعضاً فى هذه الشوارع الضيقة التى تحيطها الدكاكين من كل جانب . ولا تظن أن التجارة والاهتمام بقضاء الأعمال هما اللذان يجمعان فى شارع من شوارع القاهرة هذا الجمهور الكبير ، بل إن ذلك يرجع قبل كل شىء إلى عدم الاتصال بين الأحياء الرئيسية حيث يتألف نصف مجموع الشوارع من ممرات مسدودة .

وكثيراً ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال المحملة تضطر المارة إلى أن يقفوا لكى يفسحوا لها مكاناً . وهى ـ بمشيتها الكسلى وأقدامها العريضة ورقابها التى تنحنى تارة نحو الأرض ، وترتفع تاره أخرى ، بينما تتأرجح عليها من جانب إلى جانب رءوسها التى تنظر فى توان إلى ما يحيط بها ـ مشهد بالغ الطرافة .

ها هو ذا الكاتب القبطى ، المتواضع ، تحت عمامة سوداء كثيرة الثنيات ، والدواة مغمدة فى طيات حزامه كالخنجر ، يمر هادئاً على ظهر حماره قاصداً ديوانه .

والألبانى يختال فى مشيته ، مرسلا نظرات ماكرة شرسة ، وهو يدور محتالا فى هذه الأسواق المديدة . إن إزاره الأبيض ، وأردانه الطويلة وقد شمرها إلى كتفيه ، وسترته التى يكسوها تطريز منطفىء اللون ، وخنجره

المستطيل ، وغدارته المسرفة فى الزخرف ، ومعطفه ذا القلنسوة الموشحة بجميع الألوان ـ كل هذا يؤلف أطرف الأزياء .

وتُقبل أيضاً لتنويع المشهد نسوة محجبات الوجوه ، مختفيات فى أردية فضفاضة ، يحملن على أكتافهن أطفالا تكسوهم التمائم ، أو على رءوسهن إناء جميلا . أما نسوة الطبقة الغنية ، فتراهن محجبات من الرأس إلى القدم بأردية طويلة من الحرير الأسود ، وقد ركبن حميراً أسرجت بسجاجيد نفيسة يرعاها السواس من كل جانب ، ويتقدمها الخصيان ، ذاهبات إلى الحمام أو إلى أداء زيارة .

والعربى ـ الفخور باستقلاله ، متدثراً بمعطفه الأبيض الفضفاض ، وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ، وامتطى صهوة فرسه ـ يأتى ليقدم ثمرة خدماته مقابل لوازم الحياة الأولية .

والدرويش المعروف بمجونه ، وقد كست رأسه طاقية من اللباد الرمادى ، ونزل شعره حلقات على قفاه ، يقبل عليك ليضايقك ببركاته .

والمملوك المتباهى بعبوديته ، الأبيض البشرة ، وإلى أحد جنبيه سيف مقوس وإلى جنبه الآخر حمالة الرصاص ، يطوف فى خمول بممرات السوق .

وإذا تقابل عربيان كانا لم يلتقيا منذ أمد بعيد ، أخذ كل منهما يد صاحبه ست مرات أو ثمانى ، وقبّل كل منهما يده ثم وضعها على قلبه مرددا « كيف حالك ؟ » .

وهناك الأولياء ، نوع من المجانين مباح لهم كل شىء ويبدى نحوهم السذج احتراما دينيا . إنهم أشخاص يتكلفون التقوى ، رجال قديسون نصف عراة ، يتركون مكشوفا ما يدفعنا فى العادة شهوة مفهومة إلى أن نستره ، تجدهم جالسين فى الأركان أو يتفلون فى الشمس . وكثيرا ما رأيت نسوة تقيات متدينات يقتربن من هؤلاء الأولياء البرص ويقبلن أيديهم المنفرة .

ويمر بك الحلاق فتعرفه بتلك العصابة الطويلة من الجلد التى تتدلى من حزامه وعليها يقلب سلاحه ، وبهذا الطست النحاسى المبيض بالقصدير يتأبطه تحت ذراعه ، وبهذا الخُرج وتلك المرآة المحلاة بقطع من الصدف .

× × ×

ويمر بك مكفوفون يقودهم غلمان صغار ، وحمير محملة بالشمام أو البطيخ ، وبرص ، وكلاب ضالة ، وباعة متجولون ، ثم متسولون مصابون بأورام ضخمة أو بداء الفيل البشع ، وصناع يحملون أثقالا ، أو يدقون القهوة فى هاون بقطعة غليظة من الخشب مزودة بكتلة كروية لتكون أشد وقعاً . وتختلط صيحات السواس التى لا تنقطع « اوع رجلك ! ضهرك ! عندك ! » ونداء الباعة ، وعواء الكلاب الضارية وقد وطئتها أقدام الجياد والحمير والبغال المحملة بالقرب ، وولولةالنساء الحزينات وإنشاد المؤذنين يدعون المؤمنين للصلاة .

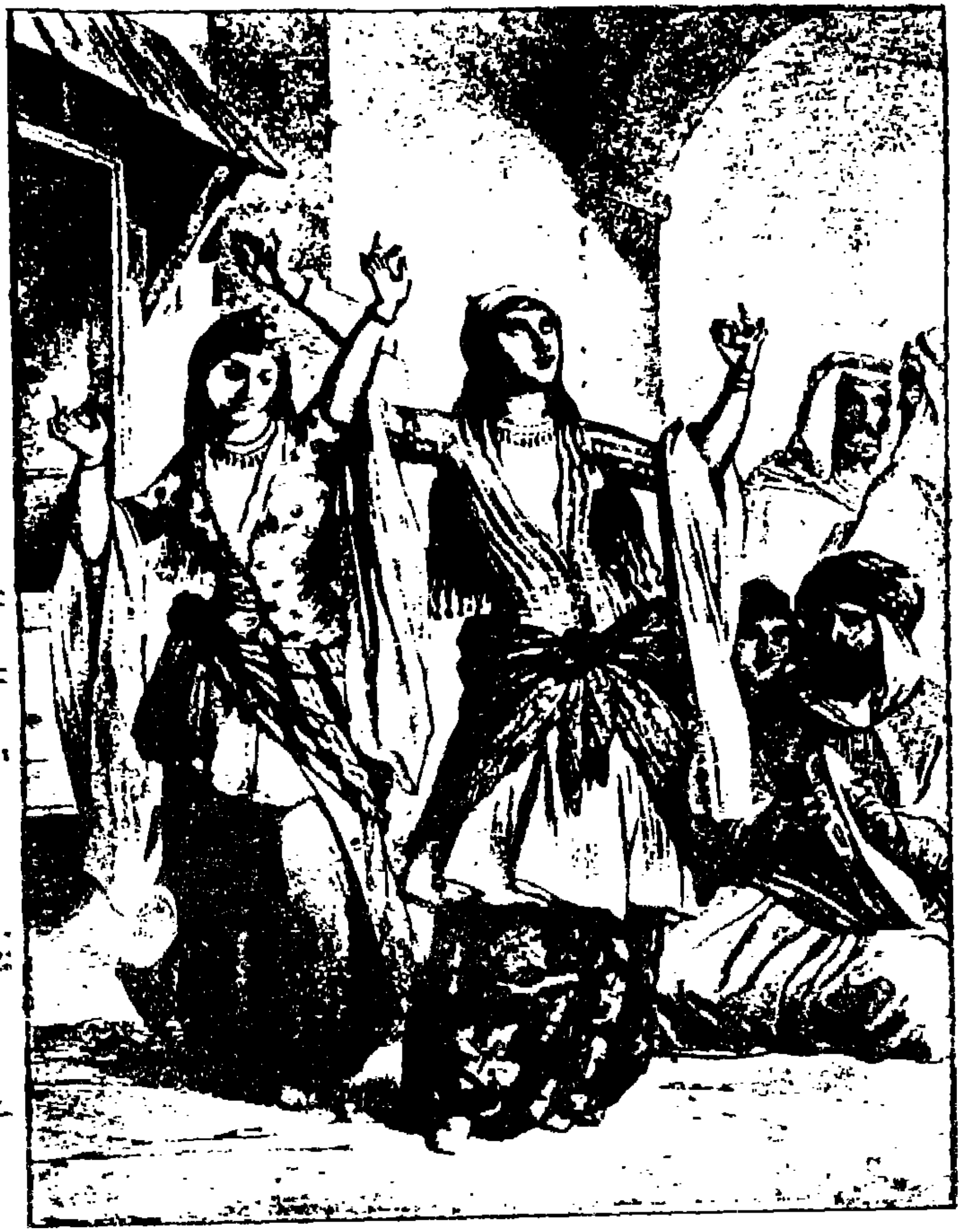
وفى غمار هذه المعمعة ، كثيرا ما تشهد مرور موكب عظيم قد احتشد فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن ، تصاحبهم أصوات ناشزة من الطبول والمزامير والأبواق الصفيحية التى تبعث أقصى ما تستطيع أن تتخيله من صوت ثاقب ، تطلقها جميعا لتحوز إعجابك جوقة من الموسيقيين على ظهور الحمير أو الجياد دون أن تبالى بتوافق الأنغام ، يتبعها هودج مزين ببهرج من « الترتر » يحوى بعض آثار الشخصية التى يحتفلون بعيدها ، ثم عدد من المباخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع الأشكال والألوان ، ثم موكب جرار من الأتقياء والمكفوفين الذين يتبعون . فإذا أضفت إلى هذا الهرج زركشة الأزياء .. تكونت لديك فكرة عن تلك المسارات .

ولكن كل هذا الصخب وهذا الازدحام لن يعطيك إلا صورة ضعيفة جدا من اللوحة التى تقدمها إليك أسواق القاهرة ، حيث يختلط القبطى والعربى والسورى والتركى وزنج سنار ودارفور والمغربى والحبشى والفارسى والهندى واليونانى والأوروبى ، ويضطربون ، ويتدافعون بالمناكب للأغراض نفسها .

على أن المنظر فى داخل القهوة حيث تنشر الأقداح وأوراق اللاذقية بخارها أو دخانها بلا انقطاع . منظر بالغ الطرافة أيضا . هناك من أبهظتهم البطالة أو أسباب العدم فاتوا بمظهرهم الجليل يلتمسون فى هذا المكان الصحو من سبات وجودهم ، وفلاحون مساكين يتناسون شقاءهم باحتساء القهوة العربية فى تلذذ . لقد أمسك كل منهم « الجوزة » فى يده ، وقبع هؤلاء أو رقدوا على الأريكة ، منهمكين فى لعب المنجلة أو الطاولة أو الشطرنج ، واجتمع أولئك حول متسول ورع يلهيهم برواية أقصوصة ماجنة ، إذ قلما يضحكون لشىء آخر .

ويقص الراوى في جلالة تلك الحكايات العجيبة ، سهرات ألف ليلة وليلة ، التى يقاطعها جمهور المستمعين بين لحظة وأخرى بصيحات التعجب : « الله ! عجايب ! والله شيطان ! » ، على حين قد أخذ آخرون فى الغناء ، وقعد غيرهم على السجاجيد يسبحون بمسابحهم .

■ ■ ■



رسم إدريس أفندى صورة « العوالم »
وأخذت عن تاريخهن بحثا دقيقا

المحتسب ـ وهو « الأغا » المكلف بالإشراف على الأسواق ـ يطوف فى المدينة على صهوة جواده . يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما . ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحين « بالكرابيــج » أو بالعصى الكبيــرة . فيستعرض الموازين ، وأثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم . ومن أى بائع كان ذلك . ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء فى الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا فى الحال .

يقبض خدمه على المطفف ويطرحونه أرضا بحيث ينكفىء وجهه ناحية الأرض ويشدون ساقيه فى « الفلقة » ، وهى نوع من النير الخشبى ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مائتى أو ثلاثمائة ضربة بالسياط يعدها الأغا فى هدوء على حبات مسبحته الوردية .

ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى ، ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز ما لديه . وفى نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه إلا محمولا أو متوكئا على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .

وأحيانا ، إذا تكرر الغش من المطفف أو إذا اتفق مع آخرين لرفع ثمن المواد الغذائية إلى درجة تثير شكوى الجمهور ، يأمر المحتسب بتسمير أذنه لكى يكون عبرة رادعة .

وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها . وتوقيع العقاب فى أكثر الأحيان يوحيه التحيز ، فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة فى ابتزاز الأموال أو اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يغتنمون ذلك فى أغلب الأحيان ، وهو أمر سهل حيال هؤلاء التجار الذين لم تحدد لهم رقابة ميزانا ولا مكيالا أو حيال باعة فقراء يكلفهم شراء أثقال الوزن النحاسية ثمنا باهظا لا يستطيعون تسديده فيستعيضون عنها بقطع من الحجر ذات وزن مناسب .

الأمن والعقوبات

مازالت مصر لا تعرف النظم الأوربية المهذبة . ويندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب مع ذلك .

ولا يجد الأجنبي في أى مكان آخر حرية أكثر مما يجد في مصر . فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من اقليم إلى اقليم دون أن تهتم اية سلطة بحضورهم . أو تتحرى وظائفهم . ولأى سبب يقومون برحلاتهم ، ولا يلزمهم أحد باستيفاء الأوراق ، فهي شيء مجهول هنا .

على ان عدم المراقبة هذا لا يفسد الأمن الخاص واستتباب الحياة العامة . فالطرق بوجه عام مامونة على الرغم من قلة طارقيها . ولا يبلغ عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه في الدول الأوربية ، وهذا مع حفظ النسبة ، ولكنه أمر قد يرجع إلى أن تلك الجرائم لم تجد بعد وسائل النشر التي وجدتها بين أهل أوربا .

وفي تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا - وهى التي تجتمع فيها كل انواع السلع الثمينة السهلة الحمل - إلا بأقفال خشبية رديئة ، وعندما يتغيب التاجر عن دكانه اثناء النهار ، يسدل على بابه شبكة بسيطة . وأما مخازن الجمرك حيث يتجمع عدد كبير من السلع فقد عهد بحراستها إلى بضعة حراس ، على حين تنبسط مستودعات الغلال في الهواء الطلق .

وقلما تعاقب السلطة بالسجن ، ولكنها تستخدم الضرب بكل سهولة وهو تعذيب فظيع همجى كثيرا ما يدفعونه إلى حد القتل . فهم يخلعون نعل المذنب ويرقدونه على بطنه ، رافعين في الهواء قدميه اللتين يوثقونهما ويشدونهما بعصا محلاة بأحزمة تسمى « الفلقة » وعلى هذا الجزء يضربون « بالكرباج » إلى أن يقول القاضى كفى . وكثيرا ما يوقعون هذا العقاب على الدبر . ولقد رأيت وزير الحربية السابق « محمود بك » يأمر بضرب بستانى قد سرقه ضربا على قدميه ودبره وبطنه وراسه حتى مات الرجل .

وحسب الرواية ، قد حدد النبى أن يكون الضرب بغصن النخلة أو بعصا مستوية من الجلد . وهكذا يفعلون في الجيش وفي إدارات القاهرة ، ولكن الحكام في الاقاليم مازالوا يعمدون إلى الضرب « بالنبوت » وهى عصا غليظة تجرح المحكوم عليه في أكثر الأحيان .

وقد خطر لمحمد على أن العقاب يكون مفيدا بإنشاء الأشغال الشاقة . وجميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم من التعساء الذين ألحقوا بأبدانهم عاهات للفرار من التجنيد . ويلاحظ بينهم أيضا بعض التلاميذ الذين أرسلوا إلى أوربا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة لانهم لم يستفيدوا من النفقات التى صرفها الباشا ـ ناشر المدنية ـ على تربيتهم .

* * *

فن التجـــارة

اذكر ما روى لى أحد التجار من أن مشتريا أتاه فساومه على سلعة ، ثم قال له بعد أن اتفقا على الثمن إنه لا يستطيع شراءها منه فى الحال . فأجابه التاجر :

« تعال غدا ، فإنى قد استفتحت اليوم . ولكن إذا لم تستطع الانتظار فاذهب إلى جارى الذى لم يبع شيئا . ان لديه السلعة التى تريدها . وقل له إنك اتفقت معى على السعر . فالتاجر إن لم يستفتح قبل الظهر لن يرزق فى بقية نهاره .

* * *

لمعظم باعة القاهرة المتجولين ، ولا سيما بائعي الفاكهة وبائعات الباقات مناديات غريبة جدا ، فيها صور شعرية ، وقد تحمل معنى مزدوجا . وفي أغلب الأحيان يتعذر عليك أن تعرف ماذا يبيعون وراء تلك الهتافات أو تلك الإعلانات .

تنادى بائعة اللبن قائلة : « يا صباح اللبن ! أو صباحك لبن ! » ، أى ليكن صباحك أبيض كاللبن .

وكثيرا ما يعلن عن قصب السكر في الشوارع بنداء « أبيض عالي والثمن غالي » ، وهي عبارة يفهم السامع أنها عود القصب الذي يغلو ثمنه كلما كان طويلا أبيض اللون ، وانها تعني من ناحية أخرى نهد أو عانة البائعة التي تكون في هذه المناسبة فتاة دائما .

ويعرضون قصب السكر أيضا للبيع منادين : « يا اللي يزور حماته بالنبوت يا أبيض ! » . فالمصريون يزعمون أن الحماة تسدى لابنتها دائما شر النصائح ضد زوجها ، وهي لهذا السبب خليقة بأن يزورها ختنها حاملا عصا في يده .

وتصيح بائعة البرتقال : « يا بردقان يا عسل ! » أو « كريم عليم يا بردقال ! » داعية الله مكنية عنه بصفتين من صفاته راجية أن يسهل البيع ويروجه .

ويصيح بائع الليمون الحلو : « عسل يا طرنج عسل ، دوا للقلب يا طرنج عسل ! . فهم يزعمون أن هذه الثمرة طيبة للمعدة ، ويخلط البائع هنا بين المعدة والقلب .

وتعلن بائعات الفاكهة عن سلعهن ، كما يفعلن لدينا ، بإضافة اسم المكان إلى اسم الثمرة : « فوة الرمان ! » أى أن ذلك الرمان من غرس « فوة » وهي موضع مشهور بجودة هذه الفاكهة .

ولبائعات باقات الورد مناديات شعرية ، فهن يقلن : « الورد شوك من عرق النبي فتح » أى أن الوردة كانت شوكة ثم ازدهرت إذ سقطت عليها قطرة من عرق النبي . وهن يقلن أيضا : « خلاقه عظيم ! » إشارة إلى صانع تلك المعجزة .

وتباع باقات الياسمين بمناداة « روايح الياسمين عجب ! »
وتقول بائعات الحنة : « تمر حنة من روائح الجنة » .
والجائلات لبيع الأقمشة يرسلن أحيانا صيحات غريبة لتستأثر بالانتباه ، فللإعلان عن نوع من نسيج القطن مصنوع بآلة يجرها الثور ينادين : « شغل الطور يا بنات ! »
وقطع الحلوى الصغيرة التي تسمى : « حلاوة » وهي تتركب من العسل المطهو مخلوطا بعقاقير اخرى ، تجول بنداء : « بمسمار يا حلاوة » اى أن ثمن القطعة منها مسمار .
ويجول الترمس في المدينة بالإعلانات الآتية : « مدد يا انبابي مدد ! » أو « ترمس أنبابة يغلب اللوز ! » أو « ياما أحلى بوح البحر » .
وثمة نداء آخر أصعب فهما للأوربي مما تقدم ، ألا وهو : « يا مسلى الغلبان يالب ! » . فهكذا يعلنون عن بذور زرع من الشمام يسمى : « عبد اللاوى » . وهم يبيعونها أيضا منادين « اللب المحمص » .
ويتجولون بثمر الجميز منادين : « جميز العنب ! » .
وينادى باعة الليمون : « الله يهونها ياليمون ! » .

■ ■ ■

الكيـــف

يبدو أن « لافونتين » قد أراد تصويره في قوله :
« إنما نعيم الإله ناشيء أنهم لا يحملون هما . انه انعدام الموت ، وعمل لا شيء » .

الكيف هو الحياة في سكون البطالة ، الحياة دون مشاغل ولا رغبات ، الحياة التي تنطوي فيها النفس على نفسها فلا يصبح لها من لذة إلا في الإحساس بأنها تعيش وفي تتابع التموجات والتيجان البيضاء التي يرسمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية العبق . فللشرقيين النهمين إلى كل متعة داخلية هادئة كلمة تستعصي على الترجمة يعبرون بها عن ذلك النعيم الذي لا يوصف ، ذلك المزاج من راحة الجسم وطمانينة النفس ، تلك السعادة الأليفة ، وهذه الكلمة هي « الكيف » .

وحين يقارن المرء حياتنا المضطربة اللاهثة المتكبرة ، وأسلوبنا في فهم السعادة ، بما يذهب إليه العرب من السكون الهنيء ، لابد من أن يفكر في بطلي الأسطورة القديمة اللذين راح أحدهما يجري باحثا عن الحظ دون جدوى على حين انتظره الآخر في هدوء على سريره حيث أقبل الحظ يسعى إليه .

« الكيف » يدل على ذلك الاستعداد الموفق للاستمتاع بكل ما يعرض من طيب الأمور في اى موقف يوجد المرء فيه دون قلق لما يعرض فيه من سيىء الأمور . « الكيف » يعرف الاستمتاع بالراحة إذا اتيحت ، والاستغناء عنها إذا لم تتح . « الكيف » كلمة تقرب من المثل القائل « القناعة تفوق الغنى » كلمة يحسن إدخالها في لغتنا .

■ ■ ■

الحـــريـم

إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه أن يعلم علمها إلا بالإقامة فى البلد الذى يزوره أمدا طويلا ، كالعوائد والأخلاق ، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات ، نظرا لأنهن منطويات دائما داخل « حريم » لا يرين إلا أزواجهن وأقرب أقربائهن . محال أن نعلم شيئا عن وجودهن إلا من الأوربيات أو السوريات اللواتى يختلطن بهن . وإنك لتسب المسلم سباً إذا سألته عما يخص حريمه ، فهو لا يذكر أبدا اسم زوجته فى مجلس عام ، وهيهات أن يتحدث فى مجلس خاص عن شئونه البيتية

* * *

أما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك فى كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا . وليس حسنهن فى انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذى تراه فى الأوروبيات ، إنه حسن حلو ساحر ، مزاج من إفريقية وأوروبا : الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف ، كبير الفم فى وسامة ، غليظ الوجنتين قليلا . وفى عينيه الطويلتين الواسعتين لحظ فاتر فاتن غلاب . لا تبحث هنا عن بشرة زنبقية وألوان من الوان الورد وصدر من المرمر الأبيض : بل قدر هذه البشرة السمراء التى ذهّبتها الشمس .

واعجب بصورة هذا الصدر الذى ما أبدع مثّال أجمل منه . وانظر إلى هذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة ، فهو الذى رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وخلب جميع الفنانين الأوروبيين .

وإذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة نفسها من الجمال ، فقدّر هذه الأجزاء التى تعوض عن عيوب كثيرة ، ولكن بادر إلى الاستمتاع ، فالجمال هنا يعبر سريعا ، إنه زهرة لا تدوم إلا نهاراً ، وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل : ذلك ان النساء لا يقمن باية رياضة ولا يصطنعن أية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتمسن السمنة بكل الطرق ، فتشوههن منذ الصبا .

وتحاول المصريات ـ والتركيات بوجه خاص ـ أن يصلن إلى تحقيق تشبيهات شعرائهن القوميين : فهن يسعين إلى جعل أوجههن مستديرة كالبدر ، وإلى جعل أردافهن عريضة بارزة لينة .

ولا تبحث كذلك لدى المصريات عن هذه الملاحة التى تكسب نساءنا ما لهن من شخصية ، فليس لثغورهن سوى ابتسامة واحدة ، وليس لعيونهن سوى نظرة واحدة ، وليس فى نفوسهن إلا فكرة واحدة ، هى اللذة ، كأنهن لم يخلقن إلا للحب .

* * *

وفى الشرق ، حيث لا يرى الرجال النساء ، هيهات أن يقرر الحب الزواج . فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة أو لتوافق فى الطباع وفى الأفكار ، بل إن المنفعة هى التى تقود وتقرر . وإذا أراد تركى أن يتزوج فهو يقترن عادة بجارية سرحها أحد الكبراء ، والكبراء يهيئون دائماً مكاناً لمن يقدم لهم ذلك المنفذ . ويهب محمد على فى أغلب الأحيان نساءه اللواتى يضيق بهن لمماليكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلاً من دلائل الشرف أو سبيلاً إلى الثراء والجاه . أما أهل البلاد فيتزواجون غالباً فيما بينهم .

* * *

وترى قريبات الفتى ـ فى الحمام أو فى زيارة ـ معظم الفتيات ، فيصفنهن له بالتفضيل حتى إذا ناسبته هذه أو تلك . ذهبت أقرب قريباته إلى طلب يدها . وأقيمت مراسم الزواج فى بيت الزوج . وتخرج العروس من بيت أبيها فى موكب حافل لتدخل بيت الزوجية ، حيث العبودية تنتظرها .

يفتتح الموكب قرع الطبول وعزف الموسيقيين وكل ذلك الهرج الذى يسود الاحتفالات العربية ، ويأتى بعد ذلك الراقصات والمشعوذون ، ثم المدعوون إلى العرس ثم النساء المحجبات كالعادة يطلقن صيحات الفرح الطويلة (الزغاريد) ، ثم تقبل العروس تحت سرادق من « القماش » الأحمر ، يكسوها من الرأس إلى القدم حجاب كثيف زاهى اللون ، وقد زينت رأسها بالحلى . وتسندها فى سيرها امرأتان تقودانها

ثم يقبل موكب غفير من الأقرباء والأصدقاء والأطفال وكل من يحب الاستطلاع وكل من يجتذبه الحفل . ويقف جميع هذا الركب بين وقت

وآخر ، لتؤدى الراقصات رقصهن ، ويؤدى المشعوذون حركاتهم . حتى يصل موكب العروس إلى بيت العريس .

وفى اليوم التالى يعرض على المدعوين منديل ملطخ بالدم أو قميص العروس . ويعير القوم أكبر الأهمية للعلائم التى تثبت أن العروس عذراء . وللزوج الحق فى أن يسرح زوجته فى الحال إذا لم تقدم له ذلك الدليل على عفافها . على أن هذه العادة الفظة والغريبة ليست دليلا قاطعا ، وما أكثر القابلات العجائز اللواتى يبعن للفتيات سر خداع عريس ساذج !

* * *

ليس للمرأة فى نظر الشرقى قيمة أكبر من انها تؤدى واجب الزوجية . إنه لا يعرف أبدا مناجاة الحب الحلوة ولا النعيم بالثقة . منذ أن يدخل حريمه تَمْثُلُ زوجته أمامه وقد كتفت يدها على صدرها فى تواضع ووقفت عينيها على عينيه تترقب أدنى حركاته . ولا يكاد يشير إشارة حتى تهرع فتخضر له « الشيشة » أو تقدم له القهوة ، على حين لا يتفضل السيد - وقد استلقى فى كسل على « الديوان » - بأن يخاطبها إلا لماماً .

والنساء شديدات التراخى ، يعجزن عن القيام بعمل طويل ، ويقضين نهارهن متمددات على أرائكهن يتعطرن أو يضفرن شعرهن ، أو يسترسلن إلى أحلامهن ، أو يغتبن غيرهن ، أو يتجسسن على سلوك جيرانهن .

ومهما يكن من شيء ، فقد توجد هنا السعادة المتوقفة على النساء ، كما توجد فى كل مكان آخر . فإذا كانت المرأة شابة ، جميلة ، محبة ، فيها لطف ورقة ، فهى تستطيع أن تمنح تلك السعادة حبشية كانت أو مصرية أو فرنسية . ولعل الحياة التى اعتادتها نساء الشرق أضمن لسعادة الزوج .

فالعالم والمجتمع فى نظر الشرقية يتلخص فى زوجها وابنائها وبعض الصديقات . وهى لذلك لا تجد فى نفسها تلك العواطف والحاجات المتكلفة التى أنتجها المجتمع وانتجتها الحركة الصاخبة ، حيث يبذر نساؤنا فى سنوات قليلة بنفوسهن وأجسامهن .

إن الشرقيات أكثر هدوءا ، لا يعشن إلا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن أنفسهن على الحب ما دمن فى الشباب ، وبعد ذلك يقفنها على أولادهن وعلى شئون بيوتهن .

لا تقولوا إذن : إن هذه الحضارة متأخرة ، همجية ، فلئن حرمتهن حرية كبيرة فإنها تعوضهن عنها سعادة بيتية ، وتلك أثمن السعادات جميعاً ، لأنها الوحيدة التى ليست حلماً .

■ ■ ■

من الغيرة إلى الإيثار : قصتان

الغيرة التى بين نساء الحريم أقل بكثير مما نظن بوجه عام : فهناك غير قليل من النساء يعشن معاً كالأخوات ، يهتممن بنفس الشئون ، فى ظل نفس الحنان ، دون أن يُتْلِفُهُنَّ الحسد . إنهن يضمرن لزوجهن أو سيدهن احتراماً كبيراً ، وإذا كانت المعاملة التى يلقينها منه رقيقة نزيهة .. أبدين له فى أغلب الأحيان إخلاصاً هيهات أن تجده فى غير الشرق .

زوج فـرنسـى

عرفت فى مصر ضابطاً فرنسيا كان قد تزوج ، على طريقة أهل البلاد ، فتاة قبطية ورزق منها ولداً . وكان يحبها حبا جما ، ولكنه ، بعد بضع سنوات من هذا الاقتران ، أحب فرنسية أثارت فى نفسه جميع ذكريات وطنه ، فطلب يدها ونالها . وإذ علمت الزوجة القبطية استيئت ، وانتهى بها الأمر إلى أن رضيت فى إذعان أن ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذى وهبته نفسها . وبفضل ثرثرة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر ، فذهبت إلى بيت غريمتها متنكرة ، وعاشرتها بعض الوقت وإذ وجدتها ممتازة فى عوائدها بقدر ما هى ممتازة فى تعلقها العميق بزوجهما المشترك ، قررت أن تسكن معها ، ونفذت قرارها فى أثناء تغيب الزوج غيبة طويلة . فلما عاد ، قدمت إليه الأم والولد ، وقالت له :

« لقد عشنا منذ رحيلك كالأختين ، وأرجو ألا تفرقنا ! »

فكان أن عاشتا معاً ، حتى فرق بينهما الموت .. وكثيرا ما يرى المرء فى الحريم زوجتين ترضعان معا ثمرتى حب رجل واحد فتتبادلان كل يوم طفليهما ، إن لم يكن ذلك لتوثيق عاطفتهما المشتركة ، فلتوثيق رابطة الأخوة بينهما على الأقل .

* * *

زوجات الشيخ حسن الجبرتي

وأستطيع أن أذكر ألف مثل من نساء يخترن بأنفسهن الغريمات اللواتي سوف يشاطرنهن فراش الزوج ، ولكنى سأقتصر على ذكر مثل واحد .. لأن الذى أورده رجل من أكبر رجال القاهرة علماً ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، الذى كتب تاريخاً لمصر الحديثة سماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وفيه يتحدث بإطناب عن أسرته وعن أبيه . والذى يعنينا هو أبوه ، الشيخ حسن ، وقد كان رجلا مثقفاً مبجلا .

أحبته زوجته الأولى أنزه الحب ، وكان من بين أعمال البر الزوجى التى كانت تنتظر عنها الثواب في الآخرة انها اشترت عدة مرات من مالها الخاص جوارى فتيات حسناوات هيأتهن على نفقتها ، وقدمتهن سرايا لزوجها. ولما كان الشيخ حسن موفور الثراء فقد أتاح له ذلك أن يتزوج نساء أخريات ، وأن يشترى جوارى أخريات ، لم تظهر لهن زوجته الأولى أية غيرة ، وهذا مالا تفعله كل امرأة .

وحين ذهب الشيخ حسن إلى الحج ، تعرف فى مكة بالشيخ عمر الحلبى الذى ألح عليه فى أن يشترى له من القاهرة جارية بيضاء عذراء لا تكاد تتجاوز سن المراهقة ، وتتحلى بصفات كذا وكذا . فلما عاد الشيخ حسن مضى إلى سوق الرقيق ، وبعد بحث كثير وفق إلى شراء جارية تجتمع فيها كل الأوصاف المطلوبة . وعهد بها إلى زوجته إلى أن يستطيع تسليمها للشخص الذى كان مقدراً أن يقتادها إلى وجهتها . وحان ذلك اليوم ، فأنبأ زوجته لكى تعد جميع ما يلزم ، غير أنها فى لحظة فراقها للجارية ، أحست بعظم معزتها لها ، فقالت له :

— لقد ألفت بينى وبين « زليخا » عاطفة كبيرة ولا أستطيع أن أفارقها أنا لم أرزق أولاداً فاتبناها ابنة لى .

وكانت الجارية الفتاة حاضرة ، فأخذت تبكى ، وجأرت انها لا تريد مفارقة سيدتها ابداً . فقال الشيخ

— ماذا أنا فاعل إذن ؟

فأجابته زوجته :

— اذهب فاشتر جارية أخرى ، وأما هذه فسادفع ثمنها من مالى .

وتم ذلك وأعتقت الزوجة العاقر جاريتها « زليخا » ، ثم أعدت لها « شوارها » ، وأثثت لها مسكناً منفصلا ، وزفتها عروساً لزوجها الشيخ

حسن ، وعلى الرغم من أنها أصبحت شريكتها فى الزواج وأما لعدة أولاد ، فإنها لم تكن تستطيع فراقها ساعة واحدة . وبعد عدة سنوات مرضت زليخا مرضاً شديداً ، فإذا السيدة العجوز تمرض بدورها ، ولا تعمر بعد وفاة تلك التى اتخذتها ابنة لها إلا ريثما تشيعها وتنظم بنفسها جنازتها .

■ ■ ■

فى الحمـــــام

ان الحمامات من الداخل جديرة بالوصف . فبعد أن تجتاز ممشى طويلا ، تنتهى إلى بهو فسيح ينفذ إليه النور والهواء من فتحة عريضة بالسقف . وتحتل وسط هذا البهو فى العادة نافورة تنبثق فى حوضها . وتمتد حول الجدران من كل جانب مصاطب فرشت بالسجاجيد والنمارق . هناك يودع المرء ملابسه . ولا تكاد تدخل حتى يتقدم نحوك خادم ليعينك على خلع ملابسك ، ثم يدثر رأسك بمناشف دافئة ، ويضع قدميك فى « قبقاب » خشبى ، ويقتادك من يدك فى ممر متعرج ينفذ منه المرء إلى المُجِمّ .

انها عدة غرف متتالية ، محلاة بفسيفسات من المرمر أو الصينى الملون يحفظها الماء دائما جد نظيفة ، وجميعها تسبق قاعة كبيرة مستديرة كسا الأسمنت جدرانها ، واتخذ سقفها هيئة قبة خفيفة لطيفة تزينها قطع من الزجاج الملون تنشر نورا حلوا جدا . وقد صنعوا فى الوسط نافورة ومدوا حول الجدران أرائك يستلقى عليها المستحمون حين يدلكهم الدالكون .

وتتصل بهذه القاعة المستديرة عدة غرف صغيرة يحتوى بعضها على مقاعد رخامية فى وجه صنابير تصب الماء البارد والساخن الذى يستحم به المرء ، ويحتوى بعضها الآخر على حوض يملؤه ما يغلى فيمتزج بخاره المتجدد دائما بما يحرقون من عطور . وفى العادة يستلقى المرء فى هذه القاعة وقد أسند رأسه إلى وسادة صغيرة أو اتكأ يدخن النرجيلة متخذا جميع الأوضاع المناسبة ، بينما تغمره سحابة من البخار تنفذ من مسامه جميعا فتصبب عرقا غزيرا .

فإذا استرحت قليلا ونديت جميع اجزاء جسمك ندى لذيذا تسلمك فتى يكاد أن يكون عاريا ، ليمرسك في رفق ، ويقلبك ، ثم يركع فيثني جميع مفاصلك دون إجهاد ودون إيلام ، ويمد جميع اطرافك ويجعلها تؤدى حركات كبيرة .

وبعد تلك المقدمات الرياضية ، قد يضع يده في قفاز باذخ الزينة ، وقد لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك باكمله نازعا منه كل وسخ لاصق به ، ثم يزيل بقطعة من الحجر الأسفنجي ما يعترى قدميك من نتوء .

وبعد التدليك ، ينشر على جسمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما .

وحين تنتهي هذه العملية يكسوك بمنشفات جديدة ويعيدك إلى القاعة الاولى ، حيث تستلقي في استرخاء على « ديوان » ، تحسو القهوة وتدخن الغليون ، على حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبداون في تدليكك مرة اخرى .

ولا تكاد النساء تخرج إلا للذهاب إلى الحمام . فهناك يقضين في كل اسبوع ساعات حلوة لذيذة ، يعرضن ترفهن ، وعطورهن ، ويسلمن شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية او فضية . وفي الحمام ياكلن وينمن وينفقن نهارهن باكمله تقريبا ، وكثيرا مايُدْخِلْنَ بعض المطربين المكفوفين ليشنفوا اسماعهن . وتعلن ستارة تسدل على باب الحمام انه مغلق دون الرجال ، وإذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم لخادمات .

■ ■ ■

رذيلة تركية

الملاوطة رذيلة شائعة جدا في مصر لا سيما بين الاتراك الذين لا يتحرجون من مزاولتها جهرا .

قبل حرب المورة ، حينما كان إبراهيم باشا حاكما للصعيد ، كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه . فارسل إليه الباشا الكبير ، بدلا من نسائه ، مماليك احداثا ، قائلا إن رجل الحرب لا ينبغي أن يكون له من حريم غير ذلك . وكذلك فعل محمود بك حيال ابن اخيه . وهذه الرذيلة التي هي اقذع عار ترمي به الإنسانية لم يكن لها اى رادع في مصر حتى سنة ١٨٣٠ إذ فرض محمد علي عقاب الأشغال الشاقة على الجنود الذين

يرتكبون فيما بينهم هذه الفاحشة . وكان الشعور بالعار خليقا بأن ينال أولئك الآثمين منالا أشد من هذا الجزاء الذى لا رجعة فيه ولا تشهير .

وماذا أنتج نفى البغايا ؟ لقد نشر خطيئة سدوم انتشارا ذريعا ، لا سيما فى الاسكندرية حيث كان المنع أصرم . فالغاشمون لا يرون بأسا من تفشى مواخير الغلمان ، ولكنهم يغرقون فى البحر أى امرأة يأخذون عليها أدنى علاقة محرمة . وقد انتهكوا فى الاسكندرية أطفالا أوربيين دون أن تجرؤ عائلاتهم على رفع الشكوى خشية الفضيحة . وطنطنت الصحف لمقتل فتى راح – مع انه كان ملتحى الذقن – ضحية رفضه الإذعان لهذه الفاحشة .

* * *

لقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تلافى تمثيل كل ما من شانه أن يجرح الذوق الرقيق المرهف . ففى تصورهم للمواقع ، حفظوا للقتلى والجرحى جميع أعضائهم ، فلا ترى شخصا بقرت بطنه حوافر الخيل . وفى المنظر الذى يمثل التحنيط ، حرصوا على الا يضعوا جثة بين يدى أنوبيس ، بل رسموا المومياء تحوطها اربطتها ، هادئة الوجه مبتسمة للموت . وفى مناظر الولادة ، تجد دائما ان عملية الوضع قد تمت ، ولا ترى أدنى شىء من التفاصيل التى تعافها العين ويمجها الذوق . أما آثار الهنود فهى عكس ذلك تماما .

* * *

دراويش

نوع من الماجنين نصف عراة ، يحتقرون – تحت ستار الدين – كل شىء ما عدا شهوات البدن . وهم من الشعب ، يتكلمون لغته ويقنعونه اكثر مما يقنعه العلماء .

فى صلاة الجمعة ، اقبل درويش فوضع امام كل من الحاضرين ورقة صغيرة يحليها إطار من الزخارف العربية وتحوى آية من القرآن . ووضع كل امرىء صدقته فوق البطاقة ، وعاد الدرويش فجمعها دون أن يوجه للمتصدقين عليه أدنى شكر .

وقلنسوة الدرويش منسوجة من تسع وتسعين غرزة لا غير ، إشارة إلى صفات الله التسع والتسعين .

* * *

حفـــلة ختـــــان

شهدت هذا المساء حفلا من العادة إقامته عند ختان الأطفال . رأيت هؤلاء الأطفال على صهوات جياد باذخة الزينة يطاف بهم فى أرجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد . وعلى رأس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالأشرطة والأزهار ، يتبعه عدة مشعوذين ، وعوالم قد أسرفن فى طلاء وجوههن وانطلقن فى هيئة مثيرة يغنين ويؤدين رقصا ماجنا ، ومصارعون دهنوا أجسامهم بالزيت ومضوا يعرضون حركات رياضية . ثم تأتى بعد ذلك جوقة من الموسيقيين راكبى الحمير ، يعزفون أنغاما حادة ثاقبة لا توافق بينها ، وانه لضجيج حقا .

وترسل النسوة اللوائى يختتمن الموكب صيحة حادة تختلط بين حين وآخر بالموسيقى ، وهى تلك الصيحة نفسها التى يستخدمنها فى الجنائز مع تنويع خاص فى تنغيمها بأصواتهن . ويسند كل طفل على حصانه سائسان يقفان به ما وقفت هذه « الزفة » ، وهى تقف فى كل ميدان لتؤدى الرقص والألعاب .

وهكذا يعودون بالأطفال إلى بيت أبيهم حيث يقوم حلاق بالعملية ، ولا يفوت الأب أن يدعو إلى وليمة حافلة لهذه المناسبة جميع الأقرباء والأصدقاء .

ولم يأمر القرآن بالختان ، ولكن المسلمين ، بل والأقباط أيضا عقب العماد ، يختتنون بوجه عام جريا على تقليد ورثوه عن آبائهم ، ولأن ذلك من إجراءات النظافة . ويقال ان فيثاغورس قد اضطر إلى أن يمتثل للختان لكى يتحدث مع الكهنة المصريين ويباح له دخول هياكلهم . وأما اليهود فينفذونه بوصفه فرضا دينا .

* * *

كــرم .. ومـــرح .. وخلـــود

لن تجد فى أى مكان أرق من كرم الضيافة الذى تلقاه فى الشرق . ولقد راع حسن الاستقبال هذا كل رحالة جاب تلك البلاد . وليس فيما يقدمه لك الشرقى أى مباهاة ، فهو يعتبر ذلك واجبا يفرضه عليه الدين . وانك لتصبح واحدا من أفراد العائلة منذ تسكن سقف رجل مسلم . وهو لا يهتم أبدا بشخصيتك من تكون ومن أين اقبلت وإلى أين تذهب ؟ ولا يوجه إلى البائس سؤالا يحرجه أو يخجله .

على الرغم من أن الطبقة العاملة ترتدى الأسمال ، فهى ليست من الانحطاط وفساد الأخلاق بالقدر الذى تجده فى مثيلاتها التى تؤلف حثالة المجتمع الأوربى . فان دينا صارما يؤثر فى الشعب تاثيرا كبيرا ويمنعه من الانحراف المنفر الذى تصادفه لدينا .

ولقد أفسد طباع هذا الشعب استبداد هو أدنى أنواع الاستبداد ، ومعاملة هى أقسى ما تكون المعاملة ، وأدى به السخط إلى ثورة نزعاته الشريرة ، ولكنه فيما عدا ذلك شعب موهوب بصفة المرح التى لم يستطع البؤس أن يغلبها ولم تستطع المظالم أن تقضى عليها ، وهو هذا المرح الذى يطرد هموم التفكير فى المستقبل . أهو الاستخفاف أم الخمول ؟

إن جميع ما نبانا به الكتاب القدماء عن طبع المصريين الهادىء نجده فى أهل مصر الحديثة ، كأن المناخ الثابت الذى لا يتغير فى هذا البلد يضفى عليهم شيئا من طبيعته .

تكاد المهن جميعا أن تكون متوارثة ، ومن النادر الا يحترف الأبناء مهنة أبيهم . و ليوم تؤلف كل مهنة ، فى كل مدينة ، نقابة لها رئيس خاص . وذلك تقليد ترجع أصوله بلا شك إلى قدماء المصريين الذين كانوا ينقسمون إلى طبقات يخلف فيها الأبناء آباءهم .

* * *

المصرى رجل ملازم للدار ، قد حفظ نزعته الضعيفة إلى الاستطلاع . انه يكره الرحلات التى تبعده عن ضفاف النيل ، النهر الذى لا يستطيع أن يبتعد عنه ـ كما يقولون ـ من شرب من مائه العذب .

* * *

العرس الحزين

روى لى الجنرال « دوماس » قصة عن كرم الضيافة العربى أعجب بها الجميع ، فلما رويتها لأحد المصريين ذكر لى قصة أروع منها حدثت فى القاهرة منذ حوالى عشرين سنة .

فقد دعا عوّاد مشهور يسمى « محمد الجاهل » جمعا عديدا لشهود عرس ولده . وما كاد يدخل الفتى على عروسه حتى أخمدته نشوة السعادة بين أحضانها على حين فجأة . فلما أنبىء الوالد التعس بالفاجعة لم يظهر شيئا من ألمه ، وكتم ولولة نسائه بأن هددهن بالطلاق ، ثم عاد فجلس مع ضيوفه ، وتناول عوده ، وأطربهم حتى الصباح . وبات يستمد من عوده ألحانا شجية عجيبة ، ويتغنى بكلمات موافقة لما يجد من شعور ، ودموعه تسح من عينيه فتستدر مدامع جميع الحاضرين .

ولما حان انصرافهم قال لهم :

— ما أردت تعكير صفوكم ، فامكثوا معى قليلا لتعزيتى . إنى فقدت ولدى فى هذه الليلة ، فامكثوا لتشيعوه معى . ولتكن إرادة الله .

وأثناء تلك الليلة ردد مرارا هذه الأبيات التى ارتجلها تحت تأثير ألمه ، والتى مازالت حتى اليوم ماثلة فى ذاكرة من سمعوه يغنى :

سبل عيونه من غير نوم والعين سودة بتراشى
نايم على فرشه سكران ويقول حبيبى ما جاشى
روح يا عذولى إبعد عنى أنا وحبيبى متهنى
قوم قوم قوم قوم

■ ■ ■

طِبْق الأصـــل

من دراسة الرسوم المنقوشة على المقابر المصرية ، يوقن المرء بتأثير « المناخ » على أخلاق السكان وعاداتهم ، وذلك للتشابه الذى بين عادات أهل مصر القدماء وأهلها المحدثين ، فإن تجدد ظواهر بعينها تجدداً دوريا ، واستقرار « المناخ » هذا الاستقرار الثابت قد انتجا عادات واحدة وميلا إلى الرسوخ يتميز به المصريون . وذلك ما جعلهم يحفظون حتى أيامنا هذه ، بالرغم من الثورات الدينية والسياسية المتعاقبة ، كثيراً من العادات القديمة .

كان جميع المصريين ، على ما ذكر هيرودوت ، يحلقون رؤوسهم ، ولكن جميع المومياء - باستثناء بعض الكهنة - محتفظة بشعرها ، ورسوم المصريين تظهرهم لنا بشعرهم ولحاهم دائما .

وتصفيف الشعر خصلا متفرقة ، كما نراه بكثرة فى الرسوم ، مازال من عادات العبابدة .

وكانت حمالة تشد قمصان القدماء ، كما نرى بوجه عام لدى الفلاحين .

وكانت النساء فى القديم ، كما هن اليوم ، يتخضبن بالحناء ويحملن ضفائر طويلة من الشعر تتدلى على أكتافهن .

وعادة التوازن فى وضع متوسط بين الجلوس والركوع ، مازالت من عادات المصريين .

وقصب الغاب الذى يستخدمونه فى الكتابة شىء عام لدى جميع الشرقيين

وقد واصل أبناء الشعب حمل الأوانى على راحة اليد مع تقريب المرفق من الجسم وجعل اليد بجوار الكتف ، وهذا تمثله كثير من الرسوم القديمة ، كما هى تمثل العادة المنتشرة حالياً فى نقل الأثقال ، فإنهم يعلقونها على رافعة شديدة يحملها من طرفيها على مناكبهما اثنان من الرجال .

ويقول هيرودوت : « إذا مات رجل ذو مكانة ، لطخت جميع نساء بيته رءوسهن ووجوههن بالطين ، وكشفن صدورهن يلطمنها ، وطفن فى المدينة » . وهذه العبارة تذكرك بالذى مازال يجرى فى أيامنا .

أما الأثاث والأدوات المنزلية فهى شديدة الشبه بما عرفه منها القدماء . يرى المرء فى الرسوم قدوراً كبيرة كانوا يضعونها على أقدام من خشب ، ويبدو أن أوانى أخرى متنوعة الأشكال كانت لها خاصية التبريد .



الخلود فى الحياة اليومية

أمام لوحة من الفن المصرى القديم جلست فلاحة جلسة الكاتب المصرى . ووقفت الأخرى كحاملات القرابين « بريشة إدريس افندى »

جولة فى شرقى الدلتا

هناك منطقة بأكملها من شرقى الدلتا قد خيم عليها الفقر . عبثا تبحث عن مدينة حديثة واحدة فى هذه الربوع التى مازالت تعرض آثار كثير من المدائن التى كانت عامرة فى القديم . وفى كل يوم تنقرض هناك الزراعة مع من ينقرض من الناس .

استوينا فى مركب شراعى ، وحظينا بهبوب نسيم جنوبى خفيف ، وفر على البحارة عناء التجديف . وبدأنا الرحلة فى جذل ، بين صخب الأغانى المرحة وتصفيق الأيدى التى توقع الألحان مع قرع الدربكة المرتفع .

شبرا :

وسرعان ما مررنا بشبرا ، أى بقصر النزهة الذى بناه محمد على . فى حديقة ذلك القصر « كشك » يذكر المرء بخيالات الشرق ، ويجسم أمامه منظرا ساحرا من مناظر « ألف ليلة وليلة » .

ثم مررنا بعدة قرى لا تقدم للباحث عن الآثار ولا لمحب الاستطلاع أى موضوع شائق ، وإنما تناقض بمظهرها الخرب وفقرها المدقع بذخ الباشا وترف العظماء . إن هذه اللوحة المحزنة التى تجرح بصر المسافر أينما رسا لتضطره فى أكثر الأحيان إلى التفكير فى أسباب هذا البؤس العميق الذى يحصد الشعب المصرى . فلو كانت حسنات الحضارة لا تُشترى إلا بالآلام والحرمان ، لما دفع شعب أفدح من ذلك الثمن نظير هذا الخليط الشائن من الهمجية والمدنية الذى يصدم أعين الرحالة فى مصر .

بنها العسل :

وإذا تابع المرء مجرى الفرع الشرقى للنيل ـ وكان هذا الفرع يحمل قديما أسماء تختلف باختلاف الأماكن التى يخترقها ـ فإن أول قرية ذات بال يلاحظها هى « بنها العسل » ، التى اشتهرت فى الماضى بحلاوة عسلها وبجمال حُدائقها . فمن هناك ، فيما يقول الكتاب العرب ، أخذ المقوقس ما أرسل من عسل ـ مع هدايا أخرى ـ للنبى محمد ، قبل أن يغزو عمرو بن العاص مصر بسنوات قليلة .

تـل أتريب :

وراء « بنها العسل » وإلى الشمال منها بقليل ، يرى الناظر عدة تلال من الأطلال تبين مكان مدينة قديمة . تلك آثار « أتريبيس » التي مازالت تحفظ اسمها قرية واقعة إلى شمالها الشرقي تسمى « أتريب » .

روى لي عامل أوربي التقيت به على تلك التلال انه أثناء تنقيبه فيها بحثا عن أحجار قبل انقضاء عشر سنوات تقريبا ، وجد أسدا من الجرانيت الوردى ، وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام . وقد استخدمت جميع هذه الآثار في بناء مصنع غزل القطن ببنها العسل . غير أن الأسد ، بفضل صلابة مادته ، قد نجا وأصبح يزين مدخل ذلك المصنع . حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر ، الذى ورد بين ألقابه على هذا التمثال لقب « منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية » .

ميت غمـر وزفتى :

وأما ميت غمر وزفتى اللتان نصل إليهما بعد ذلك ، فبلدتان صغيرتان لا أهمية لهما ، تواجه إحداهما الأخرى على ضفتي النيل المتقابلتين . بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير النيلة . ويبدو أن هاتين البلدتين حديثتا الإنشاء ، فلا يلقى الجائل فيهما أى جزء قديم . لقد لاحظ الرحالة « ساقارى » في ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع خطر له أنه استخدم كنسية للمسيحيين قبل غزو العرب .

غير أن السائر في أرجاء مصر يستطيع اليوم أن يرى عدة منائر مماثلة ، وليس طراز المسجد في جملته مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية الأخيرة ، بل تلك عمارة عربية خالصة ولكنها ذات طابع بالغ الطرافة يسترعى التفات الفنان .

وتأخذ ضفاف النيل ـ وهى كئيبة مملة حتى تلك المنطقة ـ في التزين بأضرحة جميلة ، أنيقة الشكل ، يتناقض بياضها الناصع سواد اللَّبِن والطين اللذين بنيت بهما البيوت وأبراج الحمام العالية في جميع القرى .

بهـبيت :

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من سمنود ، مازال الناظر يستطيع أن يرى بالقرب من قرية بهبيت ، على بعد نصف فرسخ داخل الأرض ، سورا كبيرا

من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لإيزيس يمكن للمرء أن يتخيل أبهته ، وإن كان من المحال اليوم أن يتعرف على أسسه . لقد كان مشيدا بأكمله من كتل جرانيتية ضخمة الأحجام .

وبينما أنا منهمك فى رسم نقوش ناووس لإيزيس ، شاهدت أحد العمال ، تتبعه امرأتان ، وقد أقبل ليريهما الحجر الشهير بحجر « العرايس » ، والذى يعتقد أهل القرى المجاورة ان له القدرة على إزالة عقم النساء . وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولدا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم ، فقبلت فى ورع كل تمثال على ثدييه وعلى بطنه ، لعل تقبيل هذه المواضع أشد أثرا . وقفزت سبع مرات فوق الكتلة ، ثم مضت راضية . إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين أهل مصر ، رغم احترامهم للقرآن واتباعهم ما نص عليه من الفروض اليومية ، فما أطول عمر الأساطير ! .

■ ■ ■

دمـــــياط

ترسم دمياط هلالا متسعا على ضفة النيل اليمنى ، عند آخر مرفق يشكله وهو يجرى نحو البحر . ويمتد أمام دمياط سهل فسيح ، تحده شمالا غابة من النخيل ، بينما تنمو وراء المدينة بساتين عديدة مزدهرة بأغنى أنواع النبات تخترقها ترع ترويها ، أو تتخللها غدران من الماء يكسو سطحها النيلوفر ، وذلك مـ ـصل المدينة عن بحيرة المنزلة .

إن مآذن المساجد الأنيقة التى ترتفع فوق النخيل ، ومختلف أعلام الدول التى عينت قناصل لها ، وساريات السفن التجارية ، تخلع على دمياط من بعيد لونا من العظمة والثراء . ولكنك إذا توغلت فى الداخل ، تهيبت عند كل خطوة تخطوها - كما هو الحال فى جميع المدن المصرية الآن - أن يسقط عليك طرف من جدار ، أو أن تتداعى واجهة بناء معتمدة على قوائم نخرها الدود ، أو أن تهوى مئذنة قد مالت على الطريق العام .

وإذا عبرت أسواقها الضيقة المعتمة ، حيث تعرض فى مواسمها ثمرات الأرض المتنوعة ، قصب السكر والموز والتين والبطيخ والشمام والقلقاس والأرز والقمح والشعير ، بين كمثرى دمشق وتفاحها ، وتبغ صور واللاذقية ، والمشمش اللبنانى المجفف ، والسمك المملح ، وصيد البحيرة ، وبلح الصالحية ، وتلك الأوانى الخزفية السوداء الهزيلة التى يصنعها أهل المنطقة ، فسوف ترى فى هذه الأسواق على وجه التقريب ما تراه فى القاهرة ، وسوف تلاحظ أن الناس يكثرون هنا من استخدام أرغفة الخبز بدلا من النقود فى ابتياع المواد الغذائية الزهيدة .

لقد كانت دمياط مدينة عامرة قبل بضع سنين ، ولكنها تتدهور كل يوم ، ولا يزيد عدد سكانها الآن على ١٢٠٠٠ نسمة بما فى ذلك ٢٠٠٠ مسيحى معظمهم من المذهب اليونانى . ومازال الجائل فى دمياط يلمح آثار بذخها الغابر فى بضعة بيوت من الآجر اعتنى أصحابها ببنائها ، تنيرها نوافذ عريضة مسورة ، وأبواب تزخرفها رسوم عربية جميلة .

وليس فى دمياط أثر يستحق الذكر . فإن أقدم مساجدها وهو مسجد أبولاتا [أبو المعاطى] ، لا يقدم للباحث سوى كتابات كوفية بالية ،

وخطة معمارية طريفة من حيث توزيعها الغريب لنيف ومائة عمود مختلفة المواد ، فبعضها من المرمر ، وبعضها من الجرانيت وبعضها من « البروفير » الأحمر تتنافر أشكالها بقدر ما تتنافر ألوانها ، وتحمل أقواسا خبيثة تتكىء عليها أخشاب السقف .

لقد دأب الناس على التكسير من الأعمدة المرمرية والحفر فيها وهناك المسلمون والمسيحيون ممن ينسبون إليها قدرة إعجازية على أمور معينة ، ويشربون نقيع شىء من هذا المرمر بعد سحقه . وبلغ من تخريب تلك الأعمدة أن بعضها لا يكاد يقف إلا على سن رهيفة يُفزع منظرها عين زائر لا يؤمن بإعجازها وهو يطوف بهذا المسجد المهجور .

■ ■ ■

الأتقيــاء والماجنـون

دخلت يوما مسجد [ابى لاتا] بدمياط لكى أرسم تيجان الأعمدة ، وهى آثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية الأخيرة ، فوجدت المسجد مليئا بجمهور صاخب . لقد وافق ذلك اليوم عيد شيخ مبجل هناك بسبب معجزاته العديدة ومدفون بهذا المسجد الذى أصبح يحمل اسمه . وكان ضريحه مزينا بالأسمال وخصل الشعر وبهرج النذور ـ كما تزين العكاكيز التى تمكن من المشى أصحابها الكسيحون أو تماثيل السيقان والأذرع كنيسة كاثوليكية .

وأخذ الجمهور يتزاحم فى صحن المسجد حيث كان الإمام قد شكل حلقة كبيرة احتلت مركزها سارية عالية مزدانة بالأعلام ، قبع تحتها أتقياء يفككون حبات مسابحهم . وألّف غيرهم من ذوى الحمية ـ بينهم الشيوخ المسنون والرجال والفتيان من جميع الطبقات ، وهم يسيرون وقد اعتمد بعضهم على بعض ـ محيطاً متحركاً يدور ببطء حول الحلقة الداخلية . ومضت كل حلقة نابعة من تلك السلسلة الكبيرة تهز جسمها هزاً وتهتف بصوت أجوف أجش : الله ! الله ! الله !

كان كل منهم يتكىء بيسراه على من تقدمه ، ويمد يمناه للمتفرجين الذين وقفوا صامتين ، فكوّنوا المحيط الخارجى للدائرة . وكان كل متفرج

حريصا على أن يسند الدائرين ، وأن يقبّل فى ورع أيدى المتشنجين .
وكان الإمام وبضعة شيوخ قائمين بجوار السارية يصفقون بالأيدى ويصيحون ليضبطوا التوقيع الذى راح قرع الطبول يؤديه أيضا بطريقة أشد صَخبا .

وسرت عواطف الحماس والاستنفار ، وانتقلت من شخص إلى شخص عن طريق البصر والسمع واللمس ، فانتشرت كما تنتشر العدوى ، وأدت فى وقت قصير إلى دوار عام .

وحينما انتهى بهم التعب إلى التهاوى ، أمسك المنهوكون منهم عن الاهتزاز ، وسقطوا وسط الجمهور التقى الذى كان يبادر إلى وضعهم فى الحلقة ، وهناك يقبعون جامدين ، لاهثين ، شاردى الأعين ، فى حال من الفناء والسكون والنشوة هى فى نظرهم أفضل من جميع خيرات الأرض ، لأنها تصلهم بالجوهر الأبدى ، الذى يأتى نوره إذ ذاك ـ كما يقولون ـ فيملأ نفوسهم .

لبثت وقتا طويلا أتأمل هذا المشهد . كان فى الأزياء المتنوعة الغريبة التى ارتداها هؤلاء المشحونون بالأرواح ، كان فى خليط ملابسهم ، وفى تعبير عيونهم ، وفى التشنجات التى أخذت تغير ملامح وجوههم ، كان فى هذه اللوحة بأجمعها طابع من التشيع والدوار المقدس أثار رعبى .

ويطلقون على هذا النوع من التمثيل الدينى اسم « الذكر » أى إحياء ذكر الله ، والأولياء إلخ . وهى حفلات تقام فى مناسبات مختلفة ، لشخص أو لجماعة ، بغية الحصول من الله على نعمة ما أو للاتصال بذاته .

وقديما دفع داود وحىٌ مُشَابه إلى الرقص أمام التابوت المقدس .

وأما محترفو التقوى ممن يستغلون الدين دائما فى خدمة أغراض الدنيا فيقيمون الذكر لإسقاط غريم ، ولاستنزال المرض على منافس ، أو الموت على عدو . ويوجد كتاب عربى عنوانه « جلجوتية » يعلّم الصوم والصلاة وجميع الطرق التى تستعمل فى « الذكر » ليكون قوى المفعول .

وبعد أن خرجت من المسجد ، توجهت نحو الأضرحة التى تحيط به ، حيث اتصل الاحتفال بالعيد فى أسلوب آخر . هناك كان ينتظرنى مشهد جديد . كانت تلك الجبانة بأسرها تكسوها الخيام والمقاهى والمتاجر المتنقلة . فهنا راقصات ومشعوذون يسحرون شبابا شرها ، وهناك

أراجيح تمرح فوقها الطفولة اللاهية .

وأدنوا من جماعة يبدو لي انها أشد ابتهاجا وصخبا مما عداها . فقد كان جمهور غفير يتزاحم في دائرة حول قرد غليظ قد أُحكم تكميمه ومضى يلعب مع غلام صغير . وبعد دورات عديدة من الكر والفر ، وحركات كثيرة متنوعة ، استولى ذلك الحيوان الشهواني على الغلام وانهال عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام .

هذا الفجور المنفر لم ينقصه شيء ، ولم يدخل عليه أى تخفيف شكلي ، ولا يستطيع غير المجنى عليه أن يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعا تاما . وكان جميع المتفرجين يصفقون ، بل واجترأت نساء على أن تشهد مثل تلك المخازى ، ومن بينهن أمهات ممسكات ببناتهن ! .

* * *

كنت قد رأيت في المسجد شبانا ينتهلون من الدين نفسه إفراطا حرمه الدين ، فقد قيَّحت الخرافات والتشيع أمخاخهم الفتية بمرض عضال ، ورأيت في الخارج فتيات يتلذذن بمناظر الدعارة حيث يأتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التى لا يعيرها الشرقيون من الاهتمام ما يعيرون عذراوية أجسامهن .

ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين أشد التقارب أن تعطياكم فكرة عن الأخلاق والتربية هنا . إن الحكومة تترك مثل هذا الفساد قائما وتتباهى بما أدخلت من إصلاحات في الدولة !

وانحدر النهار ، وذهَّبَتْ آخر أشعة الشمس قمم الأضرحة وشواهدها ، فعرجت على المسجد ودخلته وسط خضم من الناس لألقى نظرة أخيرة على الرقصة المقدسة .

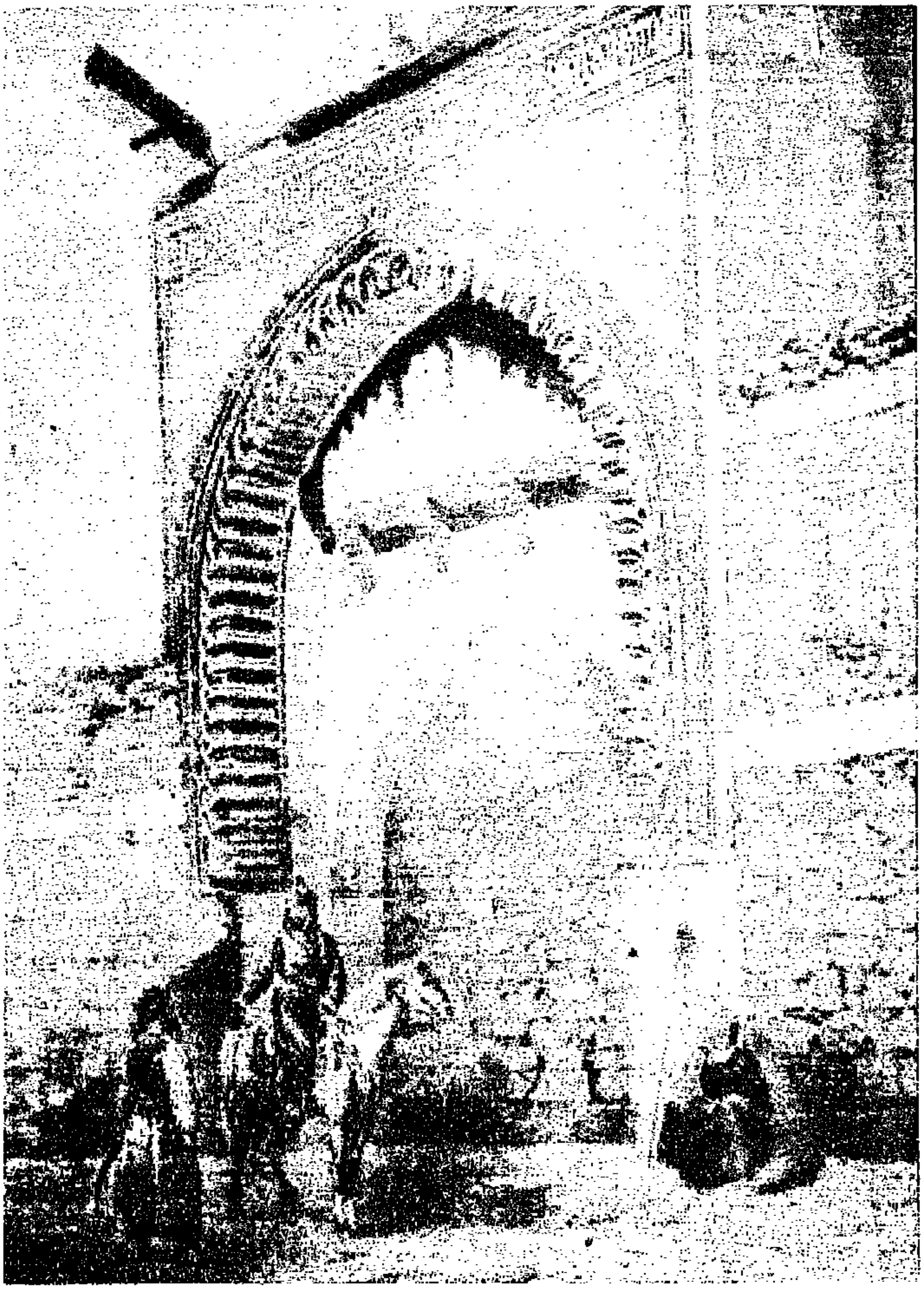
كان الجمهور قد ازداد عددا ، فقد انضم إليه جميع العمال بعد أن فرغوا من شغل اليوم . وجدت نفس الصخب ، ونفس الاختلاط ، ونفس الاحتشاد ، ولكن اللوحة قد أمست خلابة رائعة . فإلى تلك السارية المزينة بالرايات شدت حبال طويلة كالحبال التى تشد سفينة راسية ، وتدلت من تلك الحبال عقود من المصابيح الملونة بهرجت المنظر بأضواء متنوعة السطوع . وبدلا من تلك الحلقة الكبيرة التى كانت تدور حول السارية ، رأيت حلقة خاوية راح جميع من كانوا يشكلون محيطها يتحركون ، كل فرد على حدة ، مميلا أعلى جذعه إلى اليمين وإلى اليسار

ثم إلى الأمام ، وهو يصيح دائما : الله ! وكان من يسقط منتشيا يظل فى وسط الحلقة أو ينسحب بعيدا ليستمتع كما يروقه بتلك السعادة .

وبعد استراحة دامت لحظات قصيرة ، تغير المنظر أيضا . فقد جلس أكبر القوم جلالا وتقوى فى أسفل السارية ، وأحاط بهم المتفرجون ، تاركين بين كتلتيهم فضاء صغيرا . ولم تلبث حتى انطلقت صيحات فرح تشبه زغاريد النساء المديدة ، رد عليها الأتقياء ، وإذا بثلاث فرق من الرجال ، رؤوسهم كاسية بحجاب طويل ، وأجسامهم عارية إلا من إزار أبيض ، يدخلون الحلقة دون أن ندرى من أين اقبلوا ، ثم يجتمعون ويسفرون عن وجوههم ويؤلفون سلسلة جديدة . وكان كل شخص يحمل بكلتا يديه جرة صغيرة من جرار الدراويش ، ويقفز وهو مقوس الجسم مقدما ساقه اليمنى إلى اليسار قليلا ليدور على قدمه هذه ثم على قدمه الأخرى بالمثل ، وتلك حركة تشبه الخطوة الماسونية ، كانوا يؤدونها وهم يرددون الهتاف الأبدى : الله ! وبدا أنهم يقدمون الماء لكل امرىء ، ولكنهم ظلوا يرفضون إجابة سؤال الحاضرين ، ولم يوافقوا على توزيع الماء إلا بعد قيامهم بدورات عديدة .

واتصل المشهد ، فى أضواء المصابيح الملونة وضوء القمر الذى طلع إذ ذاك . وكان السكون ، وكانت الوجوه المطمئنة الخاشعة فى ذلك المجلس ، وكان تنوع الإزياء ، وذلك السُرّى الغامض الرمزّى ، وكانت تلك البوابات الخربة ، وهذه المئذنة الشاهقة القائمة كصنم معبود ، كان كل ذلك يضفى على تلك اللوحة الجديرة بريشة « رامبرانت » ، طابعا قاتما وطريفا لن تجد له نظيرا فى غير ذلك المكان .

■ ■ ■



فارس أمام مسجد الظاهر بيبرس فى القرن التاسع عشر
عن كتاب الفن العربى لإدريس أفندى .

سوري في تاريخ دمياط الحديث

كانت دمياط تتمتع ، قبل انقضاء بضعة أعوام ، باهمية تجارية هي التي منحتها الشهرة والثروة . فحرية البناء فيها ، ومصنع غزل القطن ، ومصانع النسيج ، وكثرة السلع التي تستوردها من سوريا ، ومزارع أرزها الشاسعة بوجه خاص ، كانت تجعل منها إحدى مدن مصر الرئيسية ولكنها الآن في ركود نتيجة للاحتكار الذي تمارسه الاسكندرية . ومازالت دمياط مستودع أرز الدلتا ، يضربونه فيها ويبيضونه ، غير انهم لا يبيعونه . فعلى أهل دمياط ان يشتروا الأرز من الاسكندرية .

لقد قُدر للاسكندرية فيما يبدو أن تصبح المتجر العام لمصر ، فجميع السفن ملزمة بان تقضي فيها مدة الحجر الصحي ، حيث تجد ميناءً امنا ، كما يلوح ان جميع تجارة سوريا تريد أن تتجه هذه الوجهة الجديدة . ويروى أهل البلد أن تدهور دمياط قد بدأ منذ وفاة « باسيلي فخر » ، وهو مسيحي سوري كان أول تجار المدينة .

وينبغي أن اذكر لكم شيئا عن هذا الرجل الذي يُعد بين أعلام مصر الحديثة . اخذ ابوه « حنا فخر » التزام جمرك دمياط في عهد علي بك الكبير ، وسرعان ما اثرى . وفيما بعد ، ضمنت له المكاسب التي جلبها للحكومة مكانة لدى « علي بك » وضعت كل شيء تحت سلطته .

وورث باسيلي فخر تلك الوظيفة عن ابيه ، وأحسن القيام بها ، فجمع منزلة أبيه ونفوذه ، بل وزاد ثروته الشخصية . وعينه عدة قناصل عميلا لهم في دمياط ، واثناء الحملة الفرنسية أدى بعض الخدمات ، وانقذ حياة عدة فرنسيين ساعة رحيلهم ، مما عاد عليه بعد ذلك بوسام « جوقة الشرف » .

وفي عهد محمد علي ، الذي عرف كيف يقدره ، أصبح باسيلي فخر اول شخصية في المدينة . وكانت كل السفن المصرية التي ترسو في الميناء ملكا له ، بل كانت التجارة باسرها بين يديه . وإذا كان لا يحكم المدينة فذلك لأن الإمرة لا تسند لمسيحي ، ولكن الحاكم والقاضي كانا بلا انقطاع في ديوانه العامر بالناس دائما . وقد توقف هذا الرخاء حينما نشبت ثورة اليونان ، فقد اصيبت ثروته بخسائر جسيمة ، ولم تكد تجارته التي كانت رائجة فيما مضى أن تفي بمصروفاته إلا في عسر .

* * *

وكان « فخر » يتكلم بطلاقة العربية والتركية واليونانية والإيطالية ويندهش المرء إذ يحاول أن يعرف كيف استطاع ، مع العناية بتجارته وأعماله ، وحياته فى هذا الركن من العالم بعيدا عن وسائل التثقيف ، أن يجد متسعا من الوقت ليتعلم جميع تلك اللغات ويشتغل بآدابها . وكان يفهم الفرنسية فهما يتيح له أن يترجم كتبها ، وقد تعلم الرياضة فى كتب موضوعة بهذه اللغة .

رأيت فى مكتبته التى تضم أفضل المؤلفات الفرنسية وعددا كبيرا من الكتب العربية والتركية واليونانية مخطوط ترجمة لكتاب ڤولنى « الأطلال » ومختارات وافية من « وصف السماء » لفرانكور مترجمة إلى العربية ، وبعض الفصول عن تاريخ مصر القديمة مما كتب المؤلفون المصريون . واطلعت كذلك على مجموعة من رسائل « باسيلى فخر » إلى عدد من أساقفة الشام والبطاركة تتناول اهم الموضوعات الدينية . إنك لترى أى الدراسات كان يؤثرها « فخر » ، وإنك لتقدر أى ثورة فى الأذهان كان خليقا بأن يحدثها نشر تلك المخطوطات .

ولكن للأسف عاد « باسيلى فخر » فى السنوات الأخيرة من حياته إلى جميع أوهام الأدباء الشرقيين ، فراح يشتغل بالسحر ، وكست تعليقاته كثيرا من كتب التنجيم . واستدرجته علوم الغيب إلى دراسة الهيروغليفية ، فانكب عليها بحماس ، لا ليبحث عن تاريخ حضارة المصريين القدماء ، بل ليكشف الأسرار التى أراد الإله « هرمس » أن يستودعها الخلف عن طريق لغة جامعة .

وكانت دار « باسيلى فخر » ـ وهى أجمل دور دمياط وأكثرها بذخا ـ مفتوحة لجميع الوافدين من جميع أنحاء الأرض ، ولا سيما الأوربيين الذين كان يحب عشرتهم . وما زال أهل دمياط يتحدثون عن كرم ضيافته ، وما أدى من خدمات عديدة . وقبل موته بلحظات قليلة ـ وقد توفى منذ بضع سنوات ـ قال للقسوس الذين أقبلوا يحملون إليه آخر الفروض :

— لا حاجة بى إلى وسطاء يتشفعون لى لدى كائن عادل طيب يعرف أبعد ما تكنه أفكارى خيرا مما أتذكره . دعونى أغادر هذه الدنيا كما عشت فيها .

■ ■ ■

من ذكرياتى فى الأقصر

بعد أن ألقيت نظرة سريعة على أهم معالم مصر العليا والنوبة السفلى رجعت إلى « طيبة » حيث كنت أريد أن أستقر لكى أدرس الآثار وأقوم على مهل برحلات مختلفة فى وادى النيل وفى الصحراوين اللتين تمنطقانه بحزام من الرمل والجبال الماحلة. وبدا لى المقام فى الأقصر افضل منه فى أية قرية اخرى من القرى الرابضة بين أطلال العاصمة الفرعونية، وقررت أن انزل فى المسكن الذى شيده البحارة الفرنسيون الذين كلفوا بأن ينقلوا إلى باريس المسلة التى تحلى اليوم ميدان « الكونكورد ».

وكان ذلك المنزل المتواضع المبنى باللبن فوق طنف قصر « أمونويوليس » اشمل المنازل راحة، فقد كان المرء يشرف منه على منظر رائع، ويحظى فيه بنسمات النهر البلينة، وينتقل منه وإليه بمواصلات ناجزة ميسرة، ويجد بعد هذا كله فى القرية ما يكفل حاجات الحياة اللازمة.

وسرعان ما تم استقرارى بفضل قلة الأثاث الذى يتطلبه بيت عربى، فببعض البسط والنمارق والحصر كان لى أفخر ديوان هناك. وكان اثاث غرفتى يتألف من مائدة وكرسيين أخذتهما من قاربى، وبعض الكتب صففتها على الواح من خشب الجميز منزوعة من تابوت مومياء، وخريطة معلقة على الحائط بين أسلحتى التى أصطحبها فى رحلاتى وأدوات الصيد، وسرير من الجريد تعلوه كلة. وهكذا كان لى فى غرفتين ما يفى بمقتضيات الحياة العامة ولوازم الدرس والحياة الخاصة.

وكنت قد استقررت باسمى العربى الذى أطلق علىّ عندما دخلت فى خدمة محمد على والذى احتفظت به أثناء الرحلة كما احتفظت بزى « النظام » لما كانا ييسران لى من وسائل الحياة دون سبة بين المسلمين الذين كانوا يحيطوننى والذين كنت أعرف من لغتهم وأخلاقهم ما يكفى أن أجرح شعورهم ومعتقداتهم.

وكان مجتمعى العربى المعتاد يتألف من ناظر قسم الأقصر ومن قاضى القرية وكنت اتحدث معهما فى كل شىء وأستقى منهما تاريخ الاقليم ونظام إدارته فى عهد ما عاصراه من الحكومات التى اختلفت عليه

وكان مجتمعي الأوربي مركزا في شخص يوناني يقيم على الضفة الأخرى بين المقابر المصرية ، حيث كان يعيش من تجارة الآثار ومن غلة بعض الأراضي التي كان يستخدم في زراعتها عددا من الفلاحين أسعدهم أن ينجو تحت حمايته من أتاوات الشيوخ . وكان هذا الرجل الطيب واسمه « تراياندافيلو » ، قد ضحى بكل شيء في سبيل استقلال بلاده وبعد أن فني ماله في سبيل ذلك الكفاح ، حضر إلى مصر تحت ضغط الأحداث واضطر إلى البقاء بها ، ويتحدث دائما عن رغبته في العودة إلى وطنه ولكنه يجد الاطمئنان في خلوته الهادئة فلا يغادرها حتى يموت .

وكان قد حط في « طيبة » لإدارة حفائر مستر « سولت » ثم واصل التنقيب لحسابه الخاص اذ توفى القنصل الانجليزى واكتسب هو من طول الخبرة معرفة بالأرض تؤهله أن يحدد لك مكان جميع آثار طيبة التي بيعت في أوربا منذ أربعين سنة . وكان بفضل مقامه الطويل وتجاربه وما أتيح له أن يؤدى من خدمات للرحالة ، على صلة بجميع من اشتهروا في العلم ، فكان حديثه ينبىء دائما بتفاصيل مفيدة . ومقابل المعلومات الخاصة بالآثار أو النوادر التي كان يرويها لي ، كنت امدد بأخبار أوربا وأحدثه عن عجائب حضارتها . وكثيرا ما كان يأتي لزيارتي حين كانت دراساتي تجذبني إلى الضفة الأخرى بين المقابر الفرعونية ، وكان يسرني أن أتقبل بدوري كرم ضيافته .

ولما كانت الحاجة قد اضطرته إلى التقتير فقد كان يعيش وحيدا كالراهب ، يحوك ثيابه بنفسه ، ويعد طعامه بنفسه ، ويصوم كل صوم في المذهب اليوناني ويقرأ كتابه المقدس بانتظام ، غير متخذ بعد ذلك من تسلية إلا قراءة « هومير » أو « هيرودوت » وبعض الصحف التي كان يرسلها إليه مراسله . لقد صالحني هذا الرجل الطيب القلب ، الخدوم البصير بالأمور والناصح في حكمه ، صالحني مع أبناء جنسه الذين يتعلم المرء بلا انقطاع أن يحتقرهم أينما رحل في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وإلى جانب هذه العشرة الثابتة ، كان يقبل من وقت إلى آخر الرحالة الذين كان يجذبهم إلى هذا الربع من مصر العليا حبهم للاستطلاع أو الدرس أو علاج ما أصابهم من داء أو الاشتغال بالتجارة ، والذين كانوا كالطير العابرة لا يخلفون إلا اسمهم وبعض انباء البلاد التي اقبلوا منها .

ولكن بعضهم كان يقيم أمدا يقصر او يطول بين هذه الآثار ، يحفزهم من الدوافع ما استبقاني هناك . من هؤلاء الرواد من مات قبل أن يستطيع إدراج اسمه في سجلات العلم ومنهم من عجز أن يطلع على العالم بثمرة لعلمه ، فهو ميت رغم حياته ميتة ليست أقل إثارة للأسف .

وكان مجتمعي الشرقي ، باستثناء بعض الأشخاص ، متنوعا كمجتمعي الأوربي . فقد كان كبار الموظفين الذين يجيئون للتفتيش على الاقليم يلتمسون في أكثر الأحيان في المنزل الفرنسي مسكنا أرق هواء وأضمن للراحة من المقام في مركب على النيل أو تحت خيمة .

بين هؤلاء الضيوف العابرين كان « خليل أفندي » حاكم المديرية ، وقد اتصلت به اتصالا وثيقا ، وعادت على صداقته بتقدير سكان المنطقة واعتبارهم ، وكثيرا ما كنت أدافع عن قضاياهم أمام محكمته . وكان خليل أفندي قويم النفس عادلا ، متدينا دون تعصب ولياً نزيها ، يتحلى بصفات عالية لم يكن أحد يفطن إليها في المنصب المتواضع الذي كان يشغله .

وفي تلك الفترة أقبل « ماهوبك » أحد أصدقاء الباشا ، أحد الذين زاملوه في حمل السلاح منذ الحملة الفرنسية ، فأنفق في الأقصر ثلاثة أشهر لتنشيط إرسال محصول القمح إلى بلاد العرب . وأراد أن ينزل في البيت الفرنسي ، ولكنه إذ علم أنني أحتل أجمل غرفتين فيه وأنني غير مستعد للنزول عنهما لأي شخص كان .. أرسل فرجاني أن أذهب لأقابله .

دعوة يوجهها لك « ماهوبك » كان معناها أمر صدر لك وعليك أن تصدع به . لذلك لم يستطع المملوك الذي جاء يرجوني باسم سيده أن أمضي لزيارته تصديق ما رأى من رفضي . لقد أجبته بوضوح أن « البك » إذا كان يريد لقائي فهو يستطيع أن يتجشم عناء المجيء عندي . وتكررت الدعوة ، وتكرر الرفض .

وحمل إلى الدعوة في اليوم التالي « الأب ترياندافيلو » الذي حدثني عن صديق محمد علي في عبارات شديدة الإطراء . ولما علمت أن « البك » كان مريضا وأعرج يتعبه صعود درجات سلمي الشاقة ، قبلت دعوته منبئا إياه بالأسباب التي حدتني إلى اتخاذ قراري الجديد . واستقبلني « ماهوبك » بحفاوة شرقية واستبقاني للعشاء وأطال السهرة للتحدث في التاريخ والسياسة .

وفي اليوم التالي ، بعد راحة القيلولة ، وريثما كان الخدم ينصبون خيمته ، رد « البك » الزيارة ، مريدا أن يرى الأعمال التي تستبقيني هكذا

وسط الفلاحين والأحجار ، محروما من كل وسائل الراحة التي توفرها الحياة الأوروبية . وباستعراض رسومي ، فهم كيف يمكن إعطاء فكرة واضحة صحيحة عن أهل وأشياء بلد من البلاد إلى أولئك الذين لم تتح لهم سبل الرحلة . ثم حط الحوار - كما حط في الأمس - على حديث فرنسا وانجلترا وروسيا الذى كان شغل الأتراك الشاغل إذ ذاك كما هو اليوم

وبعد سفره علمت أن خازنداره قد منح خدمي كيسا (١٢٥ فرنكا) وكان « ماهوبك » لا يزال يتبع التقاليد الشرقية العتيقة ، فتعلل بأنني ضيف محمد علي وبالتالي ضيفه هو وأرسل لي صندوقين من أجود أنبذة فرنسا وآخر من المربى والحلوى التركية .

وأثناء مقامه أفضى النظر في رسومي وفي أبحاثي مرارا بالحديث إلى ذكر أبهة المصريين القدماء وقوتهم . فرغب في معرفتهم ، وراق لهذا الرجل الذى طالما مر أمام آثار الوثنيين مبتسما في إشفاق واحتقار أن يتأملها بانتباه . وكوفئت سخرتي في مرافقته مرافقة الدليل ، فقد عادت على العالم بحفظ مدخل هيكل الكرنك الذى أمر الباشا باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة . وإجابة لرجائي أمر « ماهوبك » بالبحث عن مواد البناء في غير ذلك المكان وأنقذ الكرنك من تحطيم وشيك .

وكنت أنفق جميع سهراتي تقريبا في صحبة هذا الرجل الطيب طيلة مقامه بالأقصر . وكان في النهار بعد تصريف الشئون يسأل قارئا أن يقرأ له « سيرة نابليون وحملاته » وهو كتاب كان قد ترجم أخيرا إلى اللغة التركية بأمر الباشا وكذلك كتاب الأمير « لمكيافيلي » . فإذا حان المساء وجبت مناقشة ما جاء بهذين الكتابين ، فمن تتبع مسير الامبراطور على الأطلس إلى الإجابة عن أسئلة طويلة ، مع عدم التردد في أى جواب لكي لا تفقد في نظر أمثاله قدر ما أوتيت من علم على قلته . وكان ينبغي أن تستطيع في الحال ذكر عدد سكان الامبراطورية الروسية بكل دقة وعدد رجال جيشها ومبلغ دخلها وحدود أرضها . وكان ينبغي أن تقول - دون أن يبدو عليك الاضطراب - كم تبعد الشمس عن الأرض ، وما سرعة الصاعقة أو سرعة قذيفة المدفع ، وكيف كان زى جنود الإسكندر ، ولماذا لم يستخدموا البخار بدل البارود ، أو لماذا لا تتصل الحركة اتصالا دائما ، وما السر في عدم وجود حجر الفلاسفة .. موجز القول انه لم يكن لك بد من أن تملك معرفة موسوعية حتى ترضي جميع الأسئلة التي تثور أثناء الحديث .

وفضلا عن رغبته فى التثقيف كان « البك » سديد الرأى كبير الحيدة والتسامح ، ذا نظرات شخصية فى الأمور تخلع عليها مظهرا جديدا مما كان يعوض جليسه بعض الشىء عن ملل تلك السهرات الجارية على وتيرة واحدة والتى كثيرا ما كان يختتمها بسؤالى عما إذا كان الله قد وضع حدودا لذكاء الإنسان .

وأما فى أسلوب الحكم والإدارة فقد كان « ماهوبك » يتبع أخطاء مولاه الذى كان معجبا به إعجابا حقيقيا . لقد أطلق فى المهمة التى جاء ليقوم بها فى الصعيد كل الشدة التى يفرط فى استخدامها عمال الباشا . وقلما كان يلجأ إلى العقاب بالضرب ، ولكن الناس كانت تعلم انه يعاقب بالقتل دون مراجعة فكان الجميع يرتعدون أمامه .

ولقد أعطتنى علاقاتى تلك بماهوبك وكذلك علاقاتى بخليل أفندى حاكم الاقليم منزلة عندهما كنت أستخدمها فى سعة إذا استدعى الأمر أن يحترم العادون حقوقنا .

■ ■ ■

337

Chants funéraires (Luxor)

الخيل ياخياله والعديا وراده والله سجيع ومانع ماجا بنواولاده يا قهوه يام وتغل
شرابك فين شرابي على الطياره ياهواره يادنيا ياغضاره ودبينه فين

الديم الله كلها لله والله العراق صعيب ماهو اسم الله على المنصور وشبابه من رقدت
العيان وترابه اسم الله على المنصور ومثيله من رقدت العيان ورديمه ——

ياختمنوا قاعد على كرسيها مستنيا سيدها يقطع فتاويها ياختمنوا قاعده على الكرسي
مستنيا سيدها لما يجي ويغني — قالولنا حاكم البلد عزلوه هدوا وطاقه وعكره دلوه
قالولنا حاكم البلد رحلوا هدوا وطاقه وعكره نزلوا ——

ليت المصلي ما يصلي اليوم همل صلاته واتكى للنوم ليت المصلي ما يصلي ابدا همل صلاته
واتكى رقده ادوا المصلي الاربع والجمعة يصلي صلاة العصر والجمعة ——

دبح الدبيحة راح وخلاها جابوا سريب خيل دلاها دبح الدبيحة راح وهملها جابوا
سريب خيل نزلها — قايت على الحداد نصف الليل مزاريق عايق دقتهاله زين
ياقهوجي فاتتن عليك عايق عوده مخيش يشرب على الرايق ياقهوجي فاتتن عليك
شلبي عوده مخيش والبلبله دهبي

رثـــاء

(صفحة من وثائق إدريس أفندى عن الأقصر)

الفــــلاح

الزارع المصرى طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع صحيحها . تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتان فى محجريهما والمرتفعتان بعض الارتفاع نحو الجبين ، وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الأهداب الطويلة التى تلطف من قدحهما . وهو قوى الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج ، أما فلاحو الدلتا فأنصع بشرة بكثير وذوو مزاج لمفاوى .

وفى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالى والصور المنحوتة على الآثار القديمة . فكما تبدو لك تماثيل إيزيس ، تبدو لك مصريات اليوم . وهذا التشابه الذى لا جدال فيه يؤدى إلى استنتاجين طريفين ، أولهما يتعلق بالفن ويمكن استخدامه عند الحاجة مقياسا للحكم على ثمرات العبقرية المصرية ، وثانيهما ينتمى إلى العلم ويؤيد ما ذهبنا إليه آنفا من أثر المناخ فى العادات .

أما عن النحت فنستطيع أن نشهد بأن الفنانين فى عصر الفراعنة كانوا يستوحون الطبيعة مباشرة ، ويجيدون استيحاءها فيما نراه فى مصر من نماذج مانحتوا من تماثيل الآلهة . وأما عن العلم فنستطيع أن نقول إن تشابه نساء مصر القديمة ومصر الحديثة بعد امتزاج الدم الأصلى مرارا متعاقبة ، يؤيد الرأى الذى يرد ظهور الصفات الثانوية أى الأنواع الناشئة عن كل كتلة إلى الظروف الخارجية التى تحوط جنسا من الأجناس .

على أن جمال الفلاحة أقل دقة وامتيازا من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل من نظرته ذكاء وعمقا ، وان كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه . وسحر الفلاحة قبل كل شىء فى رقتها الحلوة . وهى طويلة القامة رشيقة مرنة ، خفيفة المشية حثيثة الخطى . ولكنها إذ تتزوج عادة فى الثالثة عشرة من عمرها ، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تزوى نضرتها من أتعاب الأمومة ومعاناة البؤس .

من ذا الذى يصدق أن من هؤلاء الأزواج الحسنى الملامح ، الوسام الطلعة يولد أبناء ضعاف مهزولون كسيحون ، دميمو الوجوه رهيفو الأطراف منتفخو البطون - مخلوقات تعسة تهلك غالبيتها الكبرى قبل أن تتم العام الأول من حياتها .

ينبغى التماس أسباب هذا الشذوذ فيما اجتمع على الفلاح من الفقر والقذارة والمعتقدات الفاسدة . لن يرى الناظر شيئا أقبح من هؤلاء الأطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم فى حياتهم قط وقد حاصر الذباب جفونهم . وإذا أضفت إلى الأسباب الرئيسية ما يعتقد الفلاح من خرافات يطبقها ويستعين بها لشفاء أبنائه أو لوقايتهم من كل أذى ، وضحت لك علة الموت الذى يحصد تلك النسبة الهائلة من الشعب الزارع . ويواصل من بقى منهم على الأرض حياة مريضة حتى سن المراهقة . وفجاة ، دون فترة انتقال تقريبا ، ترى أولئك الصغار الدميمين قد أصبحوا رجالا وساما وفتيات حسناوات ! .

وان من انشط العوامل المؤثرة فى الأطفال نظام التغذية . ولما كان الفلاحون جهلة وفقراء ، فليس فى وسعهم الحصول على غذاء صحى مقو . ويكاد غذاؤهم بأكمله أن يكون نباتيا ، فهو يتالف من قليل من خبز الذرة ، غير مختمر وسيىء النضج ، ومن الفول المسلوق ، والكوسة ، واللفت والتمر والغض من الأعشاب . ويضيفون إلى ذلك من المواد الحيوانية شيئا من الجبن غير الدسم ، وقليلا من السمك وفى النادر جدا قطعة من اللحم ، ولكنها تكون فى هذه الحالة فاسدة وأضر بالصحة من عدمها .

والشراب الوحيد الذى يتناوله الفلاح - ولو كان ميسور الحال هو ماء النيل ، وفى القرى النائية عن النهر يأسن هذا الماء فى قاع الحفر التى لا تطهر أبدا فلا يقل غضاضة عنه فتكا بالبدن .

وليس لأسرة الزارع من ترف إلا تدخين « الجوزة » واحتساء القهوة . فالفلاح يدخن دائما تبغا محليا لم يجتز إلا تقطيعا بسيطا ، ذا عطر عذب جدا . والتدخين - كما هو شان كثير من عامة الشعب فى أوربا - يسكره ويقويه فى آن واحد . وأما القهوة التى يشربها الفلاح ، فهى مركزة وبلا سكر ، فتنتج آثارا من نفس النوع ، إنها تمنح أولئك البائسين القوة التى لا يستمدونها من أغذيتهم .

ومنذ يظن الزارع العربى أنه ضمن لأسرته ما يقيم الأود ، يهوى من جديد إلى الخمول الأكمل ويعمل أقل ما يستطيع أن يعمل . وهكذا نراه تارة نشيطا لا تقعد له همة ، يخوض الوحل أو يظل فى الماء ليل نهار ، فى سبيل تلك الكسرة اللازمة من الخبز ، حتى إذا حصد المحصول تراه فى سكون شامل لا يتحرك أياما بتمامها ، قابعا تحت نخلته يدخن « جوزته » الأبدية . هناك الماشية فى الطين والبيت فى حاجة إلى ترميم ، والرجل وزوجته وعياله بلا ثياب يرتدونها ، بل والخبز غير كاف لهم فهم صفر الوجوه هزيلو الأجسام ، ولكن الفلاح مع هذا كله لا يعمل إلا بالتهديد أو إذا ضربه عمال السلطة العليا .

ورغم الركود الذى ينفق فيه الفلاح حياته عن عمد ، فإنه فى الريف أشد حياة منه خمولا ، وأقرب إلى المرح منه إلى الجد . يخاطبك محركا يديه فى قوة بإشارات معبرة ، ويحدثك متلفظا بلغته الخشنة الشديدة المخارج ، فاللغة العربية فى فمه جزلة ، عنيفة الأصوات ، وعرة المقاطع ، على حين انها حلوة موسيقية رقيقة على شفتى صاحبته .

* * *

والفلاحة فى الواقع شديدة الصبر عن عاطفة ، خاضعة ، حنون . وهى تعاون زوجها فى عمله الشاق . وإذا حدث أن سجنت السلطة الزوج ، أخذت رضيعها وجاءت عند نافذة السجن تخاطبه وتتلقى أوامره ، ثم تمضى فتنفذها فى أشد وفاء . وما أكثر ما تجد التعسة من فرص تتجلى فيها دلائل إخلاصها . فإن الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، موضع ضغط موظفى الباشا بلا هواده ، من أعلاهم إلى أدناهم : طالما ملك الفلاح قروشاً طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، غير أن الفلاح يقاوم فى إباء ، فيكون « الكرباج » أو السجن جزاءه .

ولا يستطيع أى إجراء أن يخلصه من العقاب البدنى ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه . وأما السجن فالمرأة تستطيع أن توجز مدته أو تهون من قسوته ، وفى سبيل ذلك تستخدم جميع ما أوتيت من دهاء فى التصرف وبلاغة فى القول . ولكسب رضا الشيخ ، تبيع حليها إذا كانت لم تزل تحتفظ بشىء منها ، وتتنزل له عن بقرتها أو جاموستها أو حمارها .

* * *

والفلاح وزوجته يعيشان فى عذاب متصل ؛ فليس من حد يقف ادعاء الجباة ولا جشع رجال الإدارة واختلاسهم مال الأهالى . انهم قد ينتزعون من أسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم . ومهما حسب الفلاح من حساب ، فلن يستطيع تدبير ما يضمن له المستقبل .

إن سعر القطن والنيلة والقمح والأرز المزروعة للحكومة يحدده الباشا كما يريد ، وإذا كان الاحتفاظ بسعر العام الماضى كفيلا برزقهم فمن المؤكد تقريبا أن سعر العام الحالى سينتزع منهم كل كسب سابق .

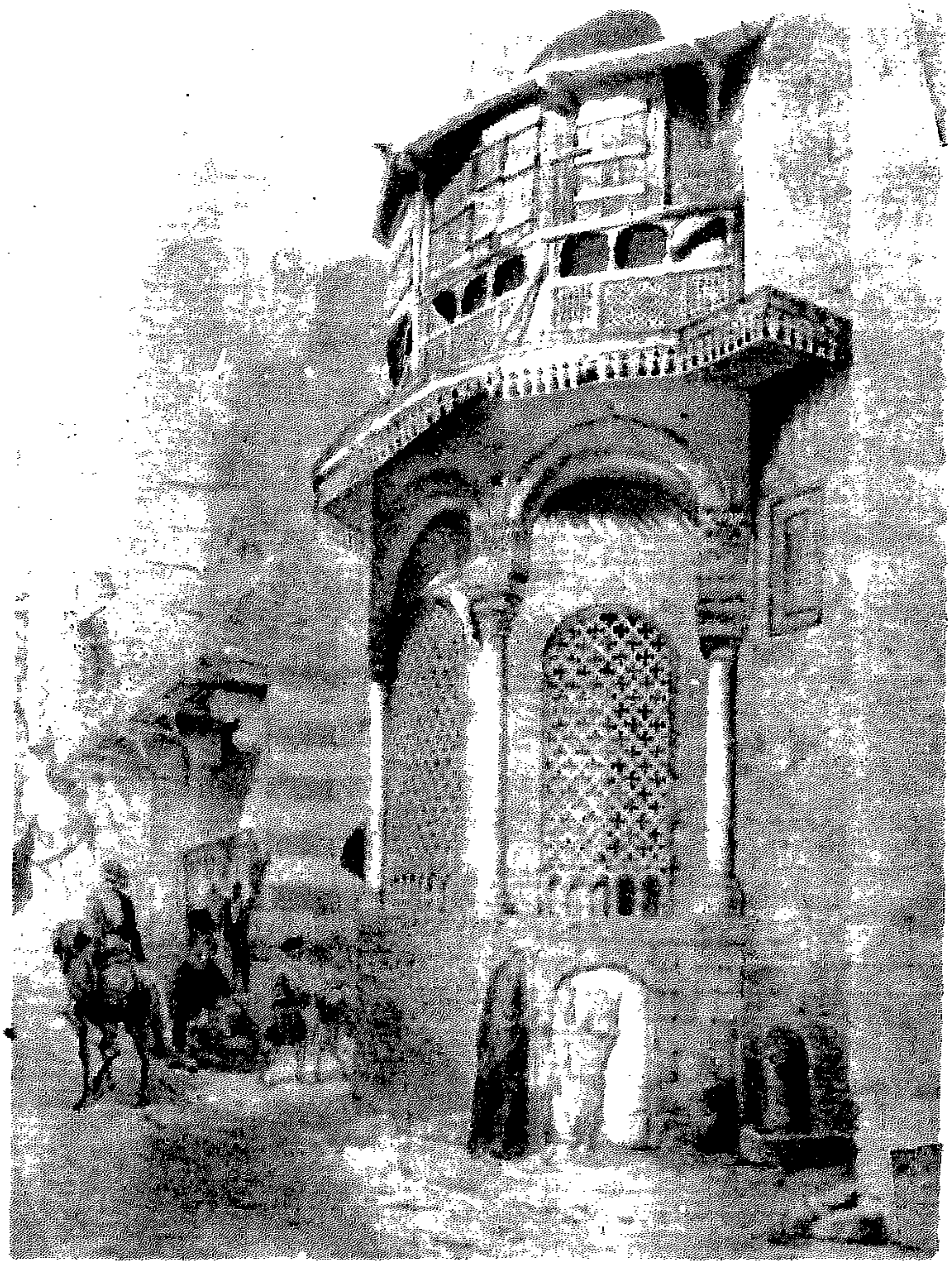
وليس للفلاح إلا ملاذ واحد إزاء ما ينهال عليه من الأذى ، ألا وهو الإذعان للقضاء والقدر . وتلك عاطفة دينية قد تغلغلت فى خلق الشرقيين الحاليين حتى ميزتهم بالتساهل والتهاون . إنه نوع من الاحتجاج العليل ينوّم ما أوتيت الهمة الإنسانية من توثب طبيعى ، ويضع محلها نوعا من الشعور السلبى الراكد وتلك فضيلة مشئومة تستتبع الأدواء التى لم تفلح فى أن تعالجها إلا علاجا فاسدا .

■ ■ ■



فـــلاح وفـــلاحة :

(بريشة : إدريس أفنـدى)



سبيل فى شارع أمير الجيوش

بريشة : إدريس أفندى

■ الجزء الثانى ■

من محمد على إلى إسماعيل



• محمد على باشا •

محمد على

صـــــــورته

محمد على رجل متوسط القامة ، بارز الجبهة ، صغير الفم باسم الشفتين ، غليظ الأنف . وقد تؤلف هذه الملامح فى مجموعها خلقة عادية ، ولكن خلقته تمتاز بسرعة التعبير ، وبمزاج متسق من الدهاء والتلطف . ويحوط وجهه إطار من لحية بيضاء جميلة تغطى صدره أيضا ، وهى موضع عناية قصوى . وله يدان كاملتا الحسن ، وذلك لون من الجمال يقدره الشرقيون كثيرا . انه قوى البنية ، أنيق الهيئة ، يمشى فى حزم وخيلاء ، وفى مشيته شىء من الدقة والنظام العسكرى . وكثيرا ما يعقد يديه وراء ظهره ، فهو يحب أن يتمشى على هذه الصورة فى جناحه كما كان يفعل بونابرت .

وقلما يرتدى الباشا ملابس باذخة . كان فى الماضى يلبس دائما زى المماليك القدماء ، ولكنه منذ بضع سنوات استبدل بالعمامة العريضة ـ التى كانت ذات مظهر شرقى نبيل ـ الطربوش العسكرى ، وبالجبيب الفضفاضة الرائعة زى « النظام » . على أن ملابسه من البساطة دائما بحيث ظنه الكثيرون واحدا من حاشية الباشا ، لا الباشا الكبير بذاته .

وتتسم عاداته بطابع الوقار وحسن الالتفات كعادات كبار الأشراف ، وان كان هذا مما يتعلمه أدنى العبيد فى الشرق بسرعة بالغة . وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الحشم المسلحين كما يفعل سلاطين آسيا ، وإنما يحرس بابه موظف واحد يفتحه لكل قادم . وفى ديوانه يراه القوم لا يحمل سلاحا ، بل يعبث فى العادة بعلبة تبغ ثمينة أو بالمسبحة التى يصطنعها أهل الشرق .

ويروق للباشا لعب البلياردو والشطرنج والنرد ، وهو لا يهتم إذا لعب باصطفاء خصمه ، بل يختاره من بين صغار ضباطه بل ومن جنوده أحيانا ، ولكن عادته جرت على أن يتخذ خصمه فى مباراة البلياردو من بين القناصل والرحالة الأوربيين . وما هكذا يتخيل الناس فى أوربا صورة محطم المماليك وقاهر السلطان محمود ومجدد مصر ! .

شخصيته

الوالي شديد الولع بالمجد ، ولذلك يتحدث بكبرياء وشغف عن أيامه الماضية . انه كثير التفكير في البهاء الذى يحيط اسمه أثناء حياته ، ويظن أن هذا الصيت سيعمر بعد موته

وهو حريص على أن تترجم له معظم الصحف الأوروبية ، ويبدو عليه الألم من النقد الهين أو اللاذع الذى كثيرا ما تتناول به الصحف أعماله أو قيمته الشخصية . ويوقن أن مهاجمات الكتاب له قد أساءت إليه شر الإساءة ، ويرد إليهم - إلى حد كبير - ما أصاب آماله من خيبة . وقد روى شخص جدير بالثقة أن « حسين بك » قد سمع محمد علي ينسب معارضة فرنسا وانجلترا لمشروعات استقلاله إلى تأثير جريدة « أزمِير » قبل كل شيء ، فقد أطنبت هذه الجريدة في إذاعة هجائه والافتراء على حكومته ، وأضاف الباشا قائلا :

— إني لأعطي راضيا مليون ريال في سبيل منع هذه الجريدة من الظهور . وانها غلطة مني هي التي سمحت بوجود هذه الجريدة ، فقد كان محررها تحت تصرفي مدة طويلة ولكني صددته .

وقد سلبته انفعالات حياته السياسية كل راحة . فهو ينام قليلا ، وهيهات أن ينام نوما هادئا . ويسهر إلى جانبيه دائما عبدان ليعيدا عليه غطاءه الذى يدفعه عنه بلا انقطاع .

ورغم قصر الوقت الذى يخصصه للنوم ، فهو دائما في نشاط قلما تجد له نظيرا . في الساعة الرابعة صباحا تراه ناهضا ، واقفا على قدميه ، ليقضي نهاره كله مع نظاره أو مستعرضا فرق الجيش أو مفتشا على أعمال البناء أو أعمال أى مؤسسة يروقه أن يراقب إدارتها .

وهو يجيد الحساب وان لم يكن قد تعلم الحساب قط . ومعروف انه كان قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره حين بدأ يسعى إلى تعلم أول مبادىء القراءة والكتابة . ويقال ان جارية من جوارى حريمه علمته حروف الهجاء ، ثم قام شيخ بتعليمه الكتابة . وتلك إحدى الخصائص المميزة لحياته ، وهي جديرة بالذكر حقا إذا فكرنا في المشاغل السياسية الخطيرة التي لابد كانت تستغرق ذهن هذا الرجل .

وهو جذاب في مجالسه الخاصة ، محب للاستطلاع ، تدل أسئلته على جهل ساذج مع إظهارها لكثير من الدهاء والفهم . وفي محادثته أحيانا

كلمات موفقة تلقيها بديهة حاضرة . فقد أشاد أحد القناصل ذات يوم بلوحة الرسام « هوراس فرنيه » التى تمثل مذبحة المماليك ، والتى أثارت إعجاب الجميع فى متحف باريس ، فقال الباشا :

— يستطيع الرسام أن يجد نظيرا لموضوعه فى مذبحة مماليك بونابرت بمرسيليا .

* * *

عسف الاستبداد

وطبعه مستبد عنيف . ولكنه ـ كجميع الشرقيين تقريبا ـ يستطيع أن يملك نفسه فى معظم الأحوال ، وأن يقود الأمور بمهارة إلى الوجهة التى اعتزم بلوغها . وهكذا تجعل منه حدة مزاجه رجلا جسورا مقداما ، كما تجعل منه قدرته على كبح حدته عند الحاجة قائدا ماهرا وتعطيه فن الإمرة حسب الظروف .

وعلى الرغم من سرعة غضبه ، فإن طيبته طبيعية كامنة تحول أحيانا دون توقيع عقابه . وتحمله سماحة قد تبدو لنا لونا من التهاون إلى العفو والرضا بل وإلى نسيان أفدح الأخطاء . وقد أملى عليه هذا الميل نحو العدالة والحلم أهم القرارات الإدارية ، ألا وهو القرار الذى يَحْرم الكبراء من الامتياز الصارخ الذى كان يخول لهم معاقبة عبيدهم وتابعيهم بالإعدام . فقد أراد أن يكون ذلك القصاص مصدقا عليه من الوالى قبل تنفيذه ، واضعا بذلك حَكَما بين المتهم والقاضى ، وفترة أجلب للسلامة بين وقوع الذنب وتوقيع الجزاء .

على أن استبداده قد يشتط أحيانا إلى حد عجيب . ونسجل هنا مثلين غريبين لذلك :

من بين النباتات النادرة التى وردت لمحمد على من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة فى قلب الأرض ، فى موضع تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازدهرت وأينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد على للمرة الأولى انها جميلة وأمر بأن توضع النبتة فى صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التى تظلل كشكه . وهنا اجترأ البستانى على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب

الوالي جبينه واقسم ليدفنن حيا ذلك الأرعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التى استاثرت فجاة بإعجابه . وفى اليوم التالى كانت الداليا موضوعة بعناية فى صندوق عريض فى ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد أخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجيء بالبستانى ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بان النبات لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، أخلى طرفه .

ومن ضمن أشجار الفاكهة التى وردت من أوروبا كذلك كان نوعان أو ثلاثة من شجر البرقوق ، اعجبته فاوصى بستانييه أن يعتنوا بها واثمرت إحدى الشجرات بعض الثمر . وبدا للباشا الذى تابع بشغف نمو هذه الفاكهة أن يتذوق شيئا منها وهى مازالت فجة خضراء ، فوجدها حلوة الطعم ، وامر مدير البستان بان يلتفت التفاتا خاصا إلى ثمرات البرقوق الخمس او الست الباقية . فكان أن احيطت الشجرة بشبكة تمنع الطيور من الوصول إلى تلك الثمرات الثمينة ، ونهض أمامها حارس يبذل انشط المراقبة . ولكن ، من نكد الحظ ، ثارت عاصفة من هذه العواصف التى تكثر فى مصر وانقضت على محط ذلك الاهتمام الشديد ، فلما انجلت لم يكن على الشجرة إلا برقوقة واحدة ! على انها اصبحت ـ نتيجة للتعويض بلا شك ـ من الروعة بحيث كانت تخيل إليك انها استوعبت وحدها جميع العصارات التى كان مقدرا أن تغذى ثمرا وافرا . واخيرا اوشكت « البرقوقة » على النضج ، غير ان الباشا كان قد تغيب لبعض الوقت عن زيارة البستان وكانه نسيه . ومرت الايام دون أن ينبيء شيء بنزهة سامية عن قريب فى شبرا . واشتد قلق المدير ، فتداول فى الأمر مع مرعوسيه ، وتقرر بالإجماع أن الثمرة قد بلغت تمام نضجها وأنها إذا لم تقطف باتت فى خطر السقوط من غصنها أو التلف على الشجرة . خلعوها إذن عن غصنها فى احتفال كبير ، ثم غلفوها فى رقة بزغب القطن المندوف ، وأودعوها فى علبة صغيرة ، وختموا العلبة وشيعوها مع رسول خاص إلى سموه . كان ذلك اثناء شهر رمضان ، وكان محمد على ـ على أثر وعكة خفيفة يتناول طعامه فى الحريم ، فقدمت إليه البرقوقة بين فواكه اخرى بيد خصى لم يعلم علم هذه الثمرة ومكانها من مولاه . وتناول الباشا الثمرة دون أى انتباه ، إذ لم ينبئه احد بامرها ، واكلها دون

أن يخطر له انها واحدة من تلك اللواتي أوصى بها وصاياه الصارمة .

وبعد ذلك بأيام ، اقبل الباشا على البستان ، ومضى راسا قبل كل شيء نحو شجرة البرقوق . ولم يكن عليها برقوق ! وقبل أن يستطيع امرؤ أن يشرح للباشا علة ذلك الاختفاء المؤسف ، كانت قد أخذت الباشا رعدته العصبية وهي الظاهرة التي تصحب أعنف غضبه ، وكان المدير قد طرح أرضا - بإشارة منه - وعوقب بالعصا عند أسفل جذع الشجرة . وأخيرا تمكن الرجل المسكين من أن يجد اذنا صاغية ، وجيء بشهود فسمعت شهادتهم ، واستدعى الخصي . وصاح به الباشا منذ أن لمحه آتيا من بعيد :

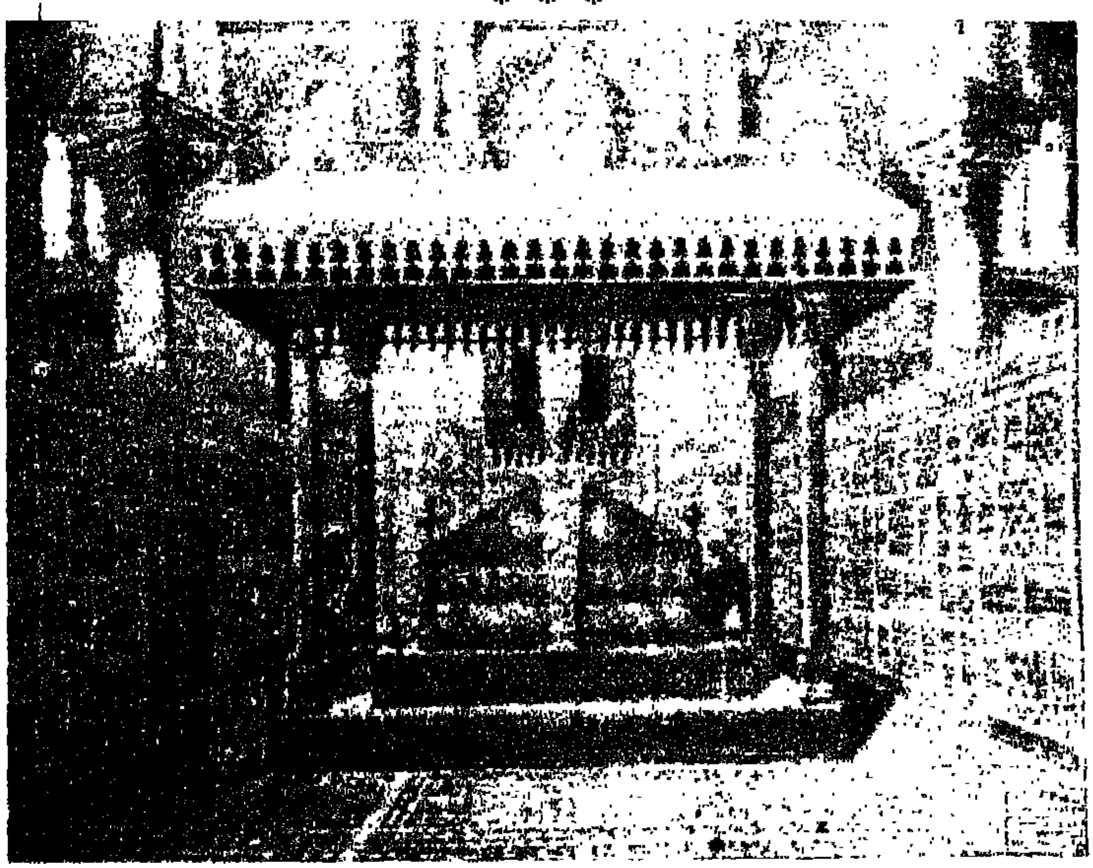
— هل أنا أكلت برقوقة ؟

— نعم يا صاحب السمو ، لقد قدمت لكم واحدة على مائدة الإفطار منذ بضعة أيام .

— ولِم لَم تنبهني إلى ذلك !

وإذا رأى الخصي الحركة التي صاحبت تلك الكلمات ، اندفع إلى الجواد المسرج في بذخ - جواد الباشا - وتوارى سريعا خلال الحقول قبل أن يحاول أحد ان يتعقبه . وظل المسكين مختفيا عدة أيام . ولكن الباشا تكرم بالعفو عنه حينما تشفع له فيه بعض المقربين .

* * *



ظـالم باشـا

ولنبادر فنعلن أن الوالي ، رغم نزواته الاستبدادية ، قد برهن في ظروف كثيرة على ولاء جم ونبل صحيح . فهو لم يوافق قط على أن يسلم للباب العالي الثوار العديدين اللاجئين إلى ولاياته ، بل حمي في ورع - أثناء ثورة اليونان - أولئك اليونانيين الذين كانوا في مصر وابقى عليهم في وظائفهم . استنادا على هذه الشواهد العارضة ، ومع ذلك فإننا نتورط في الخطأ إذا قلنا ان في ذهن الباشا أفكارا منطقية عن العدالة وان في قلبه حبا حقيقيا لها ، وانه قادر يوما على أن يشتغل اشتغالا جديا في ولاياته برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان ، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد أن يفرض على جميع رعاياه بلا تمييز شريعة حامية ، ووصاية تقوم بها إدارة منتظمة للقضاء .

* * *

إن القانون الذى أذاعه محمد على ، والذى أطنب المطنبون في الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل هذا القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا في مناسبات نادرة ، في الأحوال التي لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه . وما كان يستطيع غير ذلك ، وإلا كان عليه أن يطيح أولا ، دون تردد ، بأمنائه ، دعائم سلطته ، وأن يحرم على نفسه عددا كبيرا من المظالم .

* * *

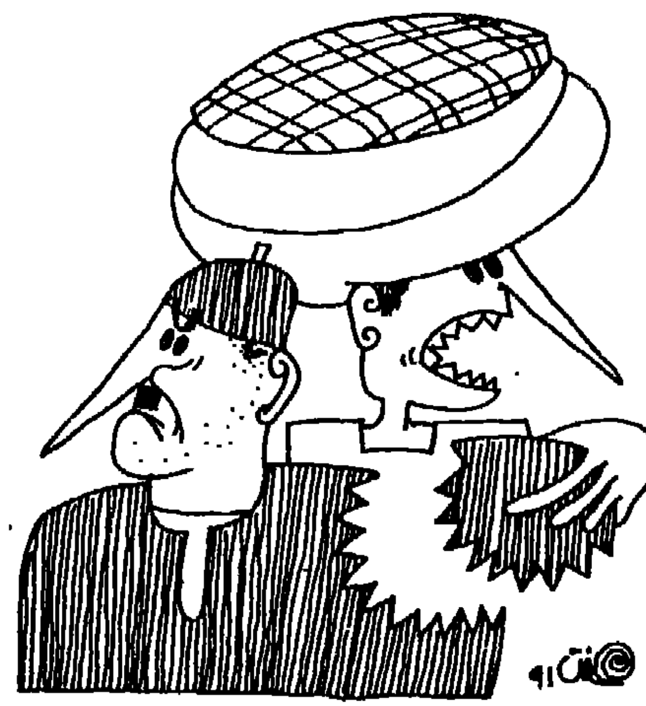
واضع القانون ينتهكه :
جناية مصطفى مختار بك

ولعل أول مجرم كانت هذه النصوص الجديدة خليقة بأن تناله هو أهم محرريها ، « مختار بك » ، الذى رغم تربيته فى فرنسا لم يفقد شيئا من الأذواق الجنسية الشائنة التى يتصف بها أهل بلاده . [مصطفى مختار مولود فى مدينة قوله أيضا] . فبعد فراغه بأيام عشرة من نقل تلك القوانين ، هاج غضبه إذ صد شهواته المنحلة فتى عربى من خدمه صدا قاطعا ، فأمر دون رحمة بضربه حتى مات التعس تحت العصا .

ولقد رأى ظالم باشا حين بلغه نبا هذه الحادثة ـ كما لا يزال يرى ذلك كثير من الكبراء فى مصر ـ أن « رأس فلاح لا تساوى شعرة من رأس تركى » .

وبالرغم من النصوص الصريحة الصارمة الواردة فى التشريع الجديد ، لم يكن على « مختار بك » من بأس إلا أن يدفع دية قدرها ٥٠٠ قرش أى حوالى ١٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ أقل من مرتبه عن يوم واحد . وهكذا ترى أنه بهذا السعر يستطيع أن يقتل ، دون قلق ، أكثر من ثلثمائة وخمسة وستين رجلا فى السنة . ولعل هذا الحكم ـ فوق ذلك ـ لم يصدر إلا رعاية للمظاهر ، فليس من المؤكد أنه قد تنفذ وأن عائلة الضحية قد تمكنت من قبض ذلك التعويض التافه .

* * *



قتـل وتعذيب

وليست تلك هى الواقعة الوحيدة التى نستطيع أن تكشف عنها الحجاب ، بل إن هذا النوع من الوقائع متوافر : فلكى يثأر لمعارضة مشابهة أو لسبب آخر لا مسوّغ له ألقى « سليم باشا » بأحد مماليكه فى الماء ، وقتل « ماهوبك » أحد مماليكه تحت العصا وفعل مثله « شكرى أفندى » . ولم تنل جنايات القتل هذه أى عقاب إلى الآن .

لقد انقضى عامان منذ نشر هذا التشريع الذى راق للبعض أن يروا فيه عربون عهد من المساواة المدنية والسلامة الشخصية لجميع أهل الولاية وسكانها الأجانب ، ولكن مازال رجال السلطة يعذبون الفلاحين بالقرميد الأحمر المحمى فى النار ، ومازالوا يسمرون آذانهم ، ويمزقون أجسامهم بضرب « الكرباج » لإرغامهم على دفع الضرائب والأتاوات للباشا « أكل الشعب » فهو خليق بهذا اللقب الذى أطلقه هومير على أحد ملوك الألياذة .

* * *

دســتور الابـــتزاز

ان الاختيار الحقيقى لنظام حكم شرعى ، وتقليد الرعايا حق الرجوع إلى سلطة الدستور ذات السيادة ، وخضوع رئيس الحكومة وعماله للحكم الأعلى الذى يصدره عن قضاء نزيه ولا مهرب منه ، كل ذلك لو تحقق لكان شر ضيق يصيب إدارة الوالى وأسلوبه فى التصرف . ولا شك فى أنه استحق إلى حد ما لقب « ظالم باشا » الذى منحه إياه الشعب وقد أصبح على يديه فى درك من البؤس لا يستطيع معه أن يمنحه أقذع منه .

* * *

ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود أن يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون أشد العناء فى تحصيل مرتباتهم وأجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون أنفسهم مرغمين فى اكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك ـ للحصول على نقود ـ على أن يبيعوا بثمن بخس تلك السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ .

لا توجد نقود فى خزائن صراف حكومى يقدم إليه امرؤ « تذكرة » اى إذن صرف ، وإنما هو يفتح ما لديه من مخازن للمطالب بحقه . ولهذا الأخير أن يختار ـ إذا كان ثمة مجال للاختيار ـ وأن يخضع للسعر المفروض . ويتوجه الدائن الذى لا يناسبه أن يأخذ مقابل حقه بعض منتجات مصانع الوالى ـ يتوجه إلى المرابين الذين يخصمون ورقته المالية بتخفيض قيمتها الاسمية تخفيضا كبيرا تتقاضى عنه السلطة الصناعية ضريبة لولاها ما كانت تأذن بهذه المعاملة .

* * *

تدمير المعدات .. على حساب الجيش !

ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على في سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته فى التلفيقات المالية : فبعد أن أخذ الأوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمر العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود . وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنها هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر . وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة . ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب .

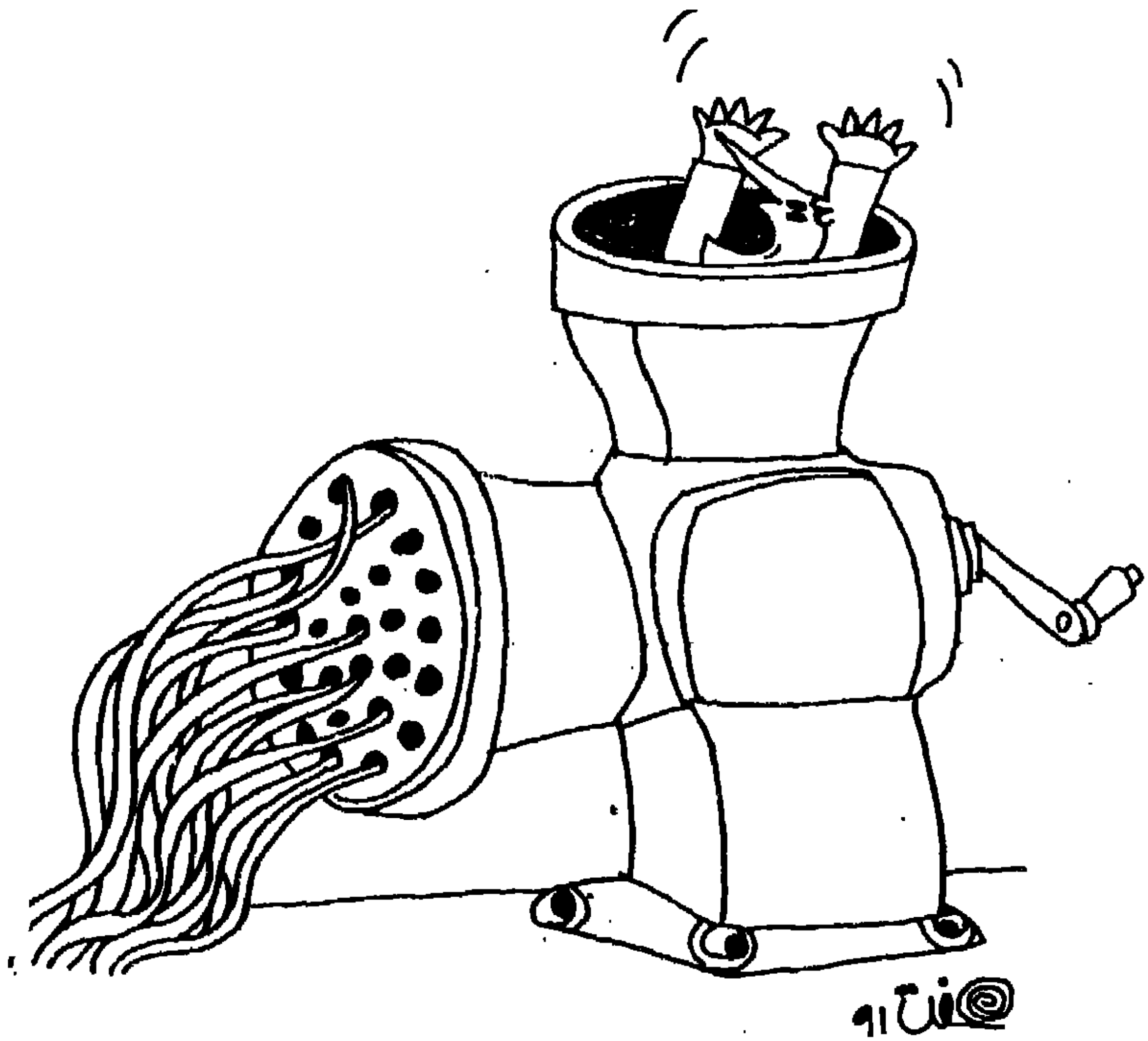
وفهم الباشا بعد لأى أنه لم يكن على الأقل من حُسن التصرف أن يتعدى الحدود بهذه المصادرة الاستغلالية التى كانت خليقة بأن تثير سخط جيش لم يزل مصير الوالى متوقفا عليه بين لحظة وأخرى .

مبدأ « الشعب كالسمسم »

ويبدو لنا فى وضوح أن وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول . ولو قد توافرت نية فعل الخير واعتاق أهل مصر المسخرين وإسعادهم ، لما احتاج الأمر بعد ذلك إلى محاكاة نظم الغرب وأخلاقه ، إذ أن فى آيات القرآن من الأمر بالمعروف ما يكفى لهذا كله ، ولا اقتصر العمل على اتباع وصايا النبى وأوامره . وبين المراسيم المفصلة التى جاءت فى الكتاب الشريف ما ينكر الغصب والاحتكار ويعاقب عليها عقاب السرقة تقريبا . ولكن يبدو أن محمد على استمد وحيه الفعال من المثل القائل :

« إنما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تطأه وتسحقه لكى تخرج منه

* * *



ثـورة الصعـيد

زاد محمد على الضرائب زيادة فادحة أثارت تذمر الأهالى .. الفلاحون الذين انتزعهم الوالى من عائلاتهم ومن حقولهم وحشدهم فى كتائب الجيش أو المصانع ، باتوا يلعنون تلك النظم التى تعتصرهم دون أن تسفر عن أى مكافأة لهم أو أى نفع يعود عليهم .

انتشر السخط بين الناس . وانطلقت الثورة فى الصعيد فى أوائل سنة ١٨٢٤ إذ خطب أحد أولياء « دراو » فى الجمهور أثناء صلاة الجمعة وألهب عصبية الملأ . وشاءت المصادفة أن تنضم إلى جموع الساخطين عدة فصائل من الجيش الجديد كانت سائرة إلى « سنار » لتحل فيها محل ما بقى هناك من الجنود غير النظاميين .. وهكذا كان الجيش عونا قويا للثائرين . وسرعان ما اقبل على حزبهم مئات من الفلاحين فبلغ عددهم حوالى عشرين ألف رجل .

غير أن هذه الثورة فى مظهرها لم تنتج من العواقب الوخيمة على الباشا ما كان يتوقع المرء منها ، بل أدت على النقيض خدمة للوالى الذى بدا أنه من شدة البطش بحيث يستتب له الأمر . ذلك أن الثائرين ، وقد ساروا إلى غير هدف محدد ، تحت قيادة رئيس غير كفء لم يستمد شخصيته من غير التعصب ، لم يلبثوا حتى فقدوا فى ملاحم متفرقة نحو ثلث قواتهم ، وأجبروا على العودة إلى النظام وعلى الخضوع ـ بعد هزيمتهم ـ لاستبداد أثقل وطأة مما عرفوا قبل القيام بثورتهم .

* * *

الشعب يحاول عزل محمد على

وما دمنا قد سجلنا اللعنة التى تتردد على شفاه الفلاحين بلا انقطاع ، فلابد لنا أن نحاول تعليل تلك الواقعة التى أعارها الرأى العام أهمية كبيرة وضج لها ضجة شديدة فى حينها ، ألا وهى المطالبة ـ المزيفة ـ بتثبيت محمد على .

بينما حاول المصريون معبرين عن شعورهم الإجماعى أن يسعوا لدى الباب العالى سعيا رسميا متوسلين عزل حاكمهم ، حدث فجأة تحول واضح فى اتجاه العقلية . وكان ذلك بطريقة سريعة وفعالة . ففى منتصف نوفمبر عام ١٨٠٤ ، استدعى الوالى إلى القاهرة جميع نظار وشيوخ الأقاليم المصرية واجتمعوا فى القلعة ، حيث خطب فيهم « حسين باشا » ـ الذى أسندت إليه مهمة رئاسة الجلسة ـ خطبة بليغة عن ضرورة إدخال إصلاحات فى إدارة الأقاليم للتخفيف عن الشعب ، فأنار أمام سامعيه أفقا سعيدا . وبعد تلك الخطبة الخالبة ، تبسط فى أخذ رأى كل منهم ، وسمع المطالب والرغبات ، وأغدق الوعود على الجميع ، ثم تصنع أنه مضطر إلى مغادرة الاجتماع فى الحال على أثر تسلمه رسالة من الوالى ، ورجا النظار والشيوخ أن يختموا سريعا بأختامهم فى الجزء الأسفل من ورقة تعهد بأنه سيكتب عليها محضر مؤتمرهم متوخيا الأمانة فى ذكر جميع مادار . ولم يجرؤ أحد من الموجودين على الرفض . وقام الباشا الأمين بارتكاب تبديل « برىء » ، فقد كتب على الورقة البيضاء الممهورة بالأختام التماسا من ممثلى الشعب المصرى للسلطان عبد المجيد يرجون فيه تثبيت محمد على واليا على مصر . ورفع علماء القاهرة على أثر خديعة أخرى مطلبا لنفس الغرض . فأى ثقة يمكن أن تعار هذه العرائض اللطيفة المادحة ، التى أفسد بها صانعوها أمانى كثير من البسطاء ؟ .

* * *

ابن « قـولـة » البـــار

إلى جانب كثير من الملكات الملحوظة ، يتحلى محمد على بصفات الرجل الفاضل فى حياته الخاصة . إنه أب بار ، وصديق أمين ، ويندر أن تجد بين الأمراء الشرقيين مثل قصده واعتداله فى شهواته ونقاء أخلاقه . وتضفى عليه حساسيته الكبيرة شيئا مؤثرا يكتسب به فى يسر عطف المحيطين به .

لقد أثرت وفاة أولاده فى نفسه أثرا عميقا ، وكان الناظر إلى وجه هذا الأب يستطيع أن يتابع أثناء أمد طويل ما وسمه به الحزن من علائم الألم . وكثيرا ما ذرف دمعا سخيا عندما فقد رفاقا له فى الحياة العسكرية . وقد أشرك فى سعده عددا كبيرا من أتراب الشباب ارتفعوا منزلة واغتنوا بفضل حظوته . ووجد بنو وطنه لديه ترحيبا كريما دائما .

وظلت ذكرى مسقط رأسه عزيزة عنده ، ويا طالما أظهر عاطفته واهتمامه نحو الربوع التى درجت فيها طفولته ! ويقال إن رعاياه المولودين فى « قولة » معفون من الضرائب ، لأنه يؤديها عنهم للخزينة . ويقال أيضا إنه أصدر الأمر بحفظ بيت أبيه وعدم التعرض له بأى تغيير ، وما زال يعيش فى ذلك البيت أقرباء له قد غمرهم بنعمه .

* * *

الشـيخ الشـــاب

يحب الباشا أن يذكر أنه يبلغ من العمر سنا أكبر مما يبلغ فى الواقع ، لكى يلفت نظر الناس إلى الفتوة التى مازال يتمتع بها . ففى عام ١٨٣٦ كان يقول إنه بلغ الثالثة والسبعين ، مما يرجع بمولده إلى عام ١٧٦٣ على حين أنه قد ولد عام ١٧٦٨ أو ١٧٦٩ .

ومن نافلة القول أن نذكر صفاته العسكرية . ويكفى ما يحدثنا به عنها المركز الذى بلغه . لن نضيف سوى القول بأنه فى حياته الخاصة كثيرا ما دفع الشجاعة إلى حد التهور . ولم تكد تنقضى الآن أربع سنوات أو خمس منذ رآه القوم يمعن على ظهر جمل فى رحلات طويلة شاقة وسط الصحراء ، أو يتحدى جنادل النيل ، ليزور « فزوغلا » ، أى يبتعد عن عاصمته ستمائة فرسخ .

× × ×

في مصاف الأبطال !

يستفسر الباشا كثيرا ـ وهو من أنصار الجديد ـ عن أمم أوربا ، تلك التي يحاكيها في شيء من التصنع ، بل ويحاكيها في أخطائها أيضا . وعلى الرغم من تلك النعرة ، مازال وطنه يؤثر تأثيرا ما على أفكاره وسلوكه . فهو يتحدث في حماس عن مقدونية ، وعن الاسكندر بطله الأثير ، وعن البطالمة ، وكأنه قد أصبح من أعضاء الأسرة لمجرد أنه خرج من نفس الأرض .

ذات يوم روى بعضهم على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر ، فصاح في فخر : « وأنا أيضا من فيليبية » (هكذا يدعو الأتراك أرض مقدونيا ، نسبة إلى فيليب أبى الاسكندر) .

ونابليون محل إعجابه كذلك . ولكن البطل المقدونى يستأثر أكثر منه بلب محمد على ، نظرا لما ذكرنا من روح اعتداده بأسرة يظن أنه أحد أفرادها . وترجمة حياة كل من هذين العلمين هى مطالعته المعتادة . غير أنه يضيف إلى موضوعات تأملاته أيضا كتاب « الأمير » لمكيا فيلى ، مازجا أمثلة البطولة بدهاء السياسة ، وقد أمر فترجم له هذا الكتاب خصيصا .

* * *

مصر وسيلته لا غايته

ولعل الآراء لم تتضارب فى الحكم على رجل تضاربها فى الحكم على محمد على . فقد رأى البعض فيه بطلا جدد عهده مصر ومدنها ، على حين جعل منه الآخرون مغامرا بارعا سعى للوصول إلى السلطة لغرض واحد هو السيادة واستغلال البلاد لمنفعته الشخصية لا أكثر .

ومهما يكن من أمر تناقض هذه الآراء ، فمن الواضح ومما ينبغى أن يعترف به الجميع أن محمد على مدين بمكانته وصيته لشدة فطنته ، واطراد مثابرته ، وقيادته الشاملة ، وعزيمته الكبيرة .

لا شك فى أن محمد على رجل ممتاز . ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها ؟ وهل حلت حكومة إصلاحية محل طغيان المماليك ؟ على هذا التساؤل سنحاول أن نلقى بعض الأضواء .

من الخطأ أن يقال إن مصر قد تمدنت ، فهى لا يمكن أن تتمدن فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن أن تأتى ارتجالا فى ربع قرن . وإذا لم ننظر إلا للنتائج فى تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة عن أن تحظى به .

من الحق أن محمد على حين أراد إدخال تجديداته فى البلاد قد راعى العادات والمعتقدات والأوهام المتمكنة المستفحلة ، ومن الحق أن غيرة السلطان المتوجسة قد اقامت فى سبيله عقبات يكاد أن يستحيل تخطيطها ، وانه كان عليه أن يتابع أعماله بأن يجند جيوشا ويجمع ضرائب لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها ، وانه كان عليه أن ينظم البلاد بأن يلقى الأقاليم فى الفقر كى يغذى حروبا لم تكن لتعود عليه إلا بالمجد الأجوف . يالها من وسائل عجيبة لتحضير البلاد ! .

لقد اعتصر مصر بعنف أنهكها ، وتعقب المصرى فى صرامة شديدة ليجعل منه جنديا حتى لقد كانت القرى تقفر من أهلها كلما اقترب نحوها رجال التجنيد . على أن وجهة تفكير الباشا بين هذه المشقات جميعا لم تكن تخفيف بؤس الشعب ولا إصلاح المفاسد التى بخسته قدره ، ولا تربية أمة جديدة أقل ذلا وأكثر ذكاء .

* * *

لقد أنشأ محاربين هزموا الوهابيين والعثمانيين ، وأنشأ بحارة وبنائين وعمالا ، وأقام مخازن للسلاح ومصانع ومدارس ، ولكن هل صار الفلاح أكثر نظافة وأوفر غذاء وأحسن أخلاقا وتربية ؟ لقد بات الباشا يتصرف فى رؤوس مال كبيرة ، ولكن كيف حصل عليها ؟ انه لم يحترم شيئا : غصب مخلفات المماليك والمساجد والأوقاف والأملاك الخاصة ، دون تمييز ، ومنذ أن أصبح السيد المطلق لوادى النيل الخصب ، غير زراعته وإدارته سعيا وراء غرض واحد هو زيادة موارده الخاصة .

ولقد أضاف إلى استيلائه على الأرض احتكار الصناعة والتجارة ، فغدا المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد . ومن هذا السلطان العريض لم يستخرج سوى أبهته الشخصية . لم يستمد من ذلك كله إجراء فعالا حاسما ضد ما يرسف فيه شعبه من بؤس وجهل . بل ولم يعمل فى مصلحة المنشآت التى أسسها حربية كانت أو بحرية أو صناعية ، إذ

لم يقدر مستقبلها ببعد نظر ثاقب حقا ، ولم يرصد عددا كافيا من التلاميذ للنهوض بها ومواصلة نشاطها بعد موته .

لقد استدعى محمد على من أوروبا عمالا فحضروا وبنوا سفنا وأداروا ورشا مختلفة ، ولكن أهم ما فى الأمر قد أهمل ، فانهم لم يدربوا إلا عددا قليلا جذا من العمال الذين يصلحون للحلول محلهم .

* * *

أيـن تربيـة الشـعب .. ؟

أنشئت المدارس لتحقيق غرض عسكرى محض ، وتخرج فيها نفر قليل من المؤهلين المقتدرين . وكيف كان يمكن أن يأمل المرء منها غير ذلك ؟ لم تكن توجد هناك العناصر الأعدادية ، وكان ينبغى فى طفرة رفع أشخاص ـ لم تتلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التى تنتقل فى أوربا من جيل إلى جيل بانتقال الحياة ـ إلى مرتبة استيعاب العلوم . إن صنع أطباء ومهندسين وأمثال أولئك وهؤلاء من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى تنمو تحت تاثيره ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

إن صنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا ذلك فحسب ، بل ما تخيلوا يوما وجود المفاهيم التى أصبحت شائعة لدى طلبة المدارس الدنيا والعليا فى بلاد الغرب ، وإن محاولة تكوين عقول واعية ـ فورا ـ من مدارك ناشئة جانبت إلى أقصى حد مختلف درجات التعريف بمبادىء العلوم هذه التى باتت تحلق فى جو المجتمعات التى تحضرت فى بطء بحيث يبدو أنها أفكار وراثية لدى الفرد يستنشقها منذ مولده ، إن تصورا للأمور فى مثل هذا التهور لم يكن من شأنه أن ينتهى إلا إلى الإجهاض .

لم يعرف محمد على فى حياته أى تربية أولية ، فورطه فى الخطا اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع ـ وكان ذلك أقصى ما يبلغه ـ أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة

من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها .

لقد بلغت استهانته بالتعليم ، إلى أخذه بعض التلاميذ من مدرسة الفرسان لضمهم إلى خدمه . وفى عام ١٨٤٠ تخير ثلاثة من أفضل طلبة الألسن ليعينهم طهاة تحت رئاسة كبير طهاة قصره ، وهو فرنسى .

* * *

تمييز الأتراك وتسخير الفلاح

لم يفكر محمد على قط في تمكين الشعب من التحرر . لقد احتقر هذا الشعب دائما واحتقر لغته.. وجميع الرتب فى الجيش من نصيب العثمانية وعبيدهم ، وكذلك الحال فى المناصب العامة .

أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة فى أيدى رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهى ، والتصرف فى قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم .

وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا ردىء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال ، فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا ، وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرباج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح فى السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له ان قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .

* * *

البؤس لمصر الغنية

ولا يرجع سوء حالة مصر المالية إلى الحروب المتعددة الطويلة فحسب ، بل إلى الإصلاحات التى لم تفهم فهما صحيحا وإلى المشروعات التى لم يحسن ولى الأمر تقديرها أو تعجل فى تنفيذها ، وإلى رذائل الإدارة ، وجشع الموظفين ، فإن هذا كله مما يدمر الثروة العمومية . وإنها لعقبات فى سبيل رخاء البلاد ، تضاف أضرارها إلى مصائب الحروب ، وتواصل عملها الفاخر أثناء السلم .

وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد بؤس المصريين ، لأن محمد علي يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما تكدست جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصّريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها .

* * *

مـاذا عمـل لمصـر .. ؟

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوربية تضج باسمه ، وانه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول . لقد وجد أنه هكذا أدى رسالة كبيرة فلم يشتغل بسعادة مصر إلا ثانويا وفي الحدود التي تكفل لمطامعه وسائل تحقيقها .

وبعبارة أخرى إن محمد علي ـ هذا الرجل الذى هياته الاقدار لانتشال مصر ! ـ لم يعِ تمام الوعي مدى أعماله : لقد أقبل ليشيد ركنا تهدم في بناء الشرق ، فتناول بضعة الأحجار التي سقطت من هذا البناء ، وبنى في عجلة مسكناً غير ذى أجل بدلا من إقامة صرح جديد كان ينبغي أن يشيده المعمارى الحق .

وجميع تصرفاته تحمل هذا الطابع ، طابع العمل المؤقت الأناني ، الذى يبدو عليه حتما لون من الإلهام . إنه لم يحم الزراعة قط ، وكان تطلعه للكسب وحده هو الذى دفعه ـ فيما يظهر ـ إلى أن يعطي للشرق مثلا نفعيا من الطرق الأوربية في الزراعة والصناعة . ومع ذلك فالمرء يتساءل كيف اتخذ الجندى المقدوني هذا السبيل ، وكيف ادرك الرجل الأمي ضرورة الخروج على المألوف التماسا للموارد والتماسا للعظمة .

* * *

ان الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغي أن يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب الدفاع من ناحية اخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه .

* * *

هـــذا الإجهـــاض ..

ولو أن محمد على توخى العمل بطريقة متجانسة منطقية ، لكان عليه قبل أن يجعل من مصر بلدا فاتحا ، أن يجعل منها بلدا تاجرا ، زارعاً ، سعيدا . وكان عليه أن يتبع برنامجا كاملا من بث حب القوانين في شعبه ، وحب النظام ، وحب الخير العام ، والثقة في التجديدات ، بدلا من أن يفرض عليه بالعنف ما يعود بنفع مباشر لشخصه . كان ينبغى عليه الإقناع لا الضغط واستخدام القوة الفكرية لا القوة الغاشمة . وكان عليه ألا يصدر فى الوظائف العليا عن إيثار صبيانى أو دسيسة أو نزق ، بل أن يسندها إلى الخادم الحق وصاحب الجدارة .

لقد كانت الزراعة والصناعة خليقتين بأن تصبحا موردين من أخصب موارد الثروة والرخاء لمصر لو انهما وجدتا من الحكومة تشجيعا ومن النظم حماية ، ولكنهما باتتا ضحية المصالح الحربية ، حكرا لمنفعة الباشا وحده ، فلم تفيدا شيئا من نشاط هو فى الواقع ظاهرى أكثر منه حقيقيا ، وسرعان ما وقف نموها .

جملة القول ان محاولة عملاقية قد أجريت ، ولما لم تكن قائمة على أساس من الخبرة الكافية فقد أحدثت على الرغم من جميع الظروف المواتية ما يحدثه إجهاض رهيب من الآلام العنيفة والإنهاك الشديد . لقد أدى محمد على مهمته ، وهو الآن مازال على قيد الحياة ، واقفا على أطلال عمل كان يبدو أنه مهيأ لأجيال قادمة ، يشهد حكم الخلف عليه .

آخـر أيـام محمـد علي

كان الأطباء قد نهوا محمد على من أن يرى نساء حريمه . بيد أن ابنته التى كان يحبها حبا جما والتى كانت تسعى دائما إلى أن تكون ذات تأثير كبير عليه ، كثيرا ما كانت تدعوه إلى قصرها حيث تجعل فى خدمته جوارى من الفتيات الجميلات كن ينسين الشيخ نواهى أطبائه . وكان يعاود زيارة ابنته مرارا ، حتى إذا نفدت قواه وعجز عن إجابة لمسات مثيرة ، ناولته ابنته عقاقير مهيجة أدت آثارها العنيفة إلى اختلال قواه العقلية .

وإزاء تلك الظروف ، وضعت إدارة مصر بين يدى إبراهيم . وثقلت على إبراهيم حياة أبيه حتى لقد منع الموظفين - قبيل وفاته هو - من عيادة الشيخ البائس الذى هوى إلى درك الطفولة . ويقال ان « سليمان باشا » وبضعة آخرين كانوا من الجرأة بحيث تخطوا تلك الأوامر .

وعاد عباس باشا - وكان قد اعتزل في الحجاز ليتفادى محضر عمه الذى لم يكن يطيقه - عاد ليتسلم مقاليد الحكومة التى تركها إبراهيم .. غير أنه لم يظهر نحو جده احتراما أكبر .

وهكذا يمكن أن يقال ان محمد على توفى مهجورا قد انصرف عنه أولاده . فقد كان سعيد باشا هو الوحيد الذى تبع نعشه . ودفن والى مصر بالمسجد الأنيق الذى بناه في القلعة ، ومن هناك يبدو أنه يشرف على البلد الذى فتحه بعبقريته ! .

■ ■ ■

فلاح أسمر ، ارتدى جلبابه الوحيد ، ولف رأسه فى عناية بملفعته ليبدو كاسيا وإن ظل حافى القدمين . إنه يتشبث بآخر ما بقى له من مظاهر الاحترام . ها هو ذا بين رجال الشرطة الفخورين بزيهم التركى القشيب ، وهم رجال شديدو البأس ، مفتولو العضلات والشوارب . طرحوه أرضا ، فنكسوا رأسه ، وعروا ساقيه ورفعوهما ، وأوثقوا قدميه كيلا تخطئهما ضربة واحدة من الضربات المائة التى مضى يتبادل توقيعها بالعصا شرطيان متخصصان فى هذا الفن من فنون التعذيب . لقد جردوه من آدميته .

وعبثا سجد أمام رئيسهم يستعطفه شيخ البلد الجليل ذو اللحية البيضاء ، فقد استوى الرئيس مسترخيا على أريكته الوثيرة ، يستروح فى لذة أنفاس النرجيلة ، وكأنه لا يسمع توسلات الشيخ المتشفع ولا صرخات الفلاح المغلوب على أمره .. وفيم التشفع ؟ ما أذنب الفلاح الكادح إلا فى عجزه عن دفع مزيد من الضرائب للباشا .

تلك هى الصورة الواقعية التى رسمها إدريس أفندى - الفنان والمؤرخ - للاحتجاج على ظلم « محمد على » .

لقد عاش إدريس أفندى بين الفلاحين ، وشاطرهم لذع سياط « المأمور » ، والحبس فى سجن قذر خانق ، لأنه عارض السلطة الغشوم ، وأبى الضيم ، واستبسل فى مصارعة رجال الباشا .



حكم ظالم باشا

(بريشة إدريس افندى)

إبراهيم باشا

صـــــورتـه

كل ما يبدو لك من خلقة إبراهيم باشا ينبىء عن رجل فظ سوقي . قامة قصيرة ، وبطْنَة ، وحركات مفاجئة ، ووجه انتشرت فيه نقط حمراء ونقره الجدرى ، وعينان رماديتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ، وثغر مبتسم دائما يضفي علي وجهه الصغير مظهرا مرحا ـ هذه هي الملامح الرئيسية في خلقته .

وكانت طبيعة إبراهيم محتدمة فائرة ، ولكنك إذا أضحكته بشيء من التهريج رجع بسهولة عن حدة غضبه . وكان نزقا عنيدا ، حذرا ، يتوجس من كل شيء ، قاسيا ، مسرفا في الانتقام . ولقد ابدى في حرب المورة أبشع همجية ، متعقبا بوجه خاص النساء والأطفال ، زاعما انه يريد استئصال ذلك الجنس . ولن اتحدث عن جسارته ، فقد ضرب أمثلة عديدة من الاستبسال .

وكان يحب الانتفاع فلا يدخر وسيلة لتكديس كل ما يطيب له . وبلغ من تكالبه على الكسب انه اثناء حياة والده كان يزاول التهريب ويسرب إلى القاهرة « تمباك » مزارعه التي كانت في القبة . وكان يعرف دائما ان يجد التعلة لينكص عما وعد .

وكان يتكلم كثيرا كلاما ردىء العبارة خاليا من كل علم ، والويل لمن كان يجرؤ على أن ينقض ما يقول أو أن يقدم بعض الاعتراض على مشروعاته . ولا يكاد إبراهيم يعرف القراءة والكتابة إلا في مشقة ، ويضيف إلى هذه الذخيرة من الجهل غرورا وكبرياء لا تطاق . انه لا يعرف فضل المحسن ، وبالتالى لا يسعى إليه ، وهو اقل من ذلك سعيا إلى اثابته . وقد يصغى أحيانا إلى رأى أولئك الذين يحيطون به ، ولكن إسرافه في الاعتداد بنفسه واملاقه من سداد الرأى الذى يتيح للمرء أن يقارن ، ومن المعارف التى تتيح للمرء أن يناقش ، كل ذلك يدفعه إلى اتباع رأيه دائما لانه يعتقد انه افضل الآراء ، وهو يقول : « انا إذ أفعل كل شيء بنفسي يغمرنى المجد أو اللوم دون سواى »

* * *

مذبحة المماليك الثانية

التجأ المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة ـ حيث قتل ١٢٠٠ منهم ـ إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « إبراهيم بك » إياهم ـ وقد انهكهم قتال اقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر ـ إلى ان يلتمسوا المأوى فى الجبال التى يقطنها العبابدة والبشارية . واجبرتهم هذه القبائل الهمجية على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد انفق البكوات لإمداد جنودهم بالقوت اللازم فى قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما أملق المماليك من راحة الحياة واصبحوا يعانون مالا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التى أرسل إبراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب بل وان يعيدهم إلى مثل المناصب التى فى مستوى رتبهم وان يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط ان يعترفوا بحكومة محمد على .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فانستهم الدرس القاسي الذى تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفى نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو اسنا حيث كان مقر قيادة إبراهيم . فلما اجتمع المماليك ، ورأى ابن محمد على انه لا ينبغى انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالإجهاز على اشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوى صولة فيما مضى . وفى ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد اسود مصير سادتهم .

وأنقذت وساطة طبيب إبراهيم الفرنسى مملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته فى أسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال .

* * *

إبــراهــيم القــــائــد

لم يكن لإبرهيم شيء من ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقائد الجيش ، فلذلك كان ما كسبه من فوز راجعا إلى جبن أعدائه بصورة لا يمكن للمرء أن يتصورها أكثر منه إلى تدبيره ومهارته . وهو لا يصدر تعليمات واضحة محددة ، وإنما يتكلم كثيرا ، حتى يختلط الأمر على رجاله لكي يستطيع إذا فشلت المهمة أن يلقى وزر الخطأ على أولئك الذين ـ حسب ما يرى ـ لم ينفذوا أوامره .

ويقود إبراهيم قواته العسكرية بالتملق والخرافات وإغرائها بالسلب والنهب ، ولا يعاقب أبدا على ما ترتكبه من فظائع كما انه لا يثيبها . ولا يشغله أبدا همّ المحافظة على سلامة جنوده والعناية بصحتهم ، فانه يهدمهم بالمشى المنهك ، وقلة الراحة التى يمنحها إياهم ، وقلة الغذاء والكساء .

هذا هو الرجل الذى اجترأ قلم مرتزق (مسيو سكاكينى) على أن يكتب عنه : « ان إبراهيم روح الجيش . نظرته الواعية ورباطة جاشه من صفات قائد محنك . وولاؤه وتواضعه النبيل وانطلاقه وسط نار الوغى قد كسبت له قلوب رؤساء جنوده . لقد قدر لهذا الأمير ، الإدارى الصالح ومحب أنوار الثقافة والمدنية ، ألمع مستقبل » . هكذا ـ على وجه التحديد ـ يكتبون التاريخ ! .

* * *

إبــراهــــيم العظـيم ؟ !

إنما يعرف الرجل بأعماله . ولرسم صورته واخلاقه ينبغى ذكر الوقائع فى المكان الأول لا التفلسف ولا الإشادة بالمناقب ولو كان فى ابلغ الأساليب . وها هى ذى بعض الوقائع التى تتحدث من تلقاء نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .

أثناء جولة بدمياط ، شرف إبراهيم باشا بحضوره حفلة أقامها لتكريمه « سرور » القائم بأعمال الانجليز . وبعد راحة القيلولة قدمت له صبية تتراوح سنها ما بين الثامنة والعاشرة سلة من الفواكه والأزهار . فاثنى إبراهيم للقنصل على جمال ابنته مشيرا إلى أنها سرعان ما سوف تبلغ نضجها ، وسأله هل أمها على قيد الحياة ، فلما أجيب بالإيجاب ، أضاف :

— ويحكم أيها النصارى لا تتزوجون إلا امرأة واحدة ! انى أتمنى لك موت الأم هذا الأسبوع لكى تحظى بأخرى .

* * *

إبـراهـيم البـطل ؟ !

أكتوبر ١٨٢٦ :

أثناء حملة شنها إبراهيم باشا على ضواحى « تريبوليزا » أسر الرجال فتى يونانيا فى كمين ، فأحضروه إلى خيمة الباشا ، وسأله إبراهيم عن اسم قائد فرقته ، فأجاب الفتى انه جندى ولكنه لا يعرف شيئا مما يسأله عنه . وألح الباشا فى سؤاله ، وإزاء رفض الفتى هدده بالموت ، فرد عليه :

— لو كان لى بذلك علم فلن أخون مصلحة وطنى . فاغتاظ إبراهيم من هذا الجواب النبيل ، وتناول بندقية واحد من حراسه ، وقتله .

ديسمبر ١٨٢٦ :

أقبل رجل يونانى إلى معسكر « مودون » للمفاوضة على تبادل بعض الأسرى . فرفض إبراهيم باشا عروضه ونهاه عن المجىء مرة أخرى . وبعد بضعة أيام ، حضر نفس المفاوض إلى المعسكر لنفس الغرض . فأمر الباشا - دون أن يحاول الإصغاء إليه - بالقبض عليه وإلقائه حيا فى تنور معمل للآجر .

* * *

إبـراهـيم التـاجـر

لقد بلغ من جشعه انه كان يعمل دائما على تأخير دفع مرتبات جنوده واحتجاز شىء منها . وفى المورة لم يدخر وسيلة للاستيلاء على النقود . وهذه بعض الأمثلة التى تشهد بذلك :

كان « أنتوناكى ميتاكسا » تاجرا يونانيا يبيع ويشترى لحساب إبراهيم باشا فى مودون . كان يبيع لأفراد الجيش من اللوازم ما يحتاجون إليه ويقبض الثمن أوراقا مالية تخصم من مرتباتهم . ولما ظل الضباط مدة طويلة دون قبض مرتباتهم ، عمدوا - لكى يحصلوا على شىء من النقود - إلى أن يشتروا ملابس وأسلحة من « ميتاكسا » بأثمان غالية ثم يبيعونها

فى السوق ليستمدوا بعض المال نقدا . فكان عملاء « ميتاكسا » يشترون نفس السلع بثمن بخس ويملأون بها مخازنه من جديد .

وكان إبراهيم باشا يبيع لجنوده أحذية وملابس بأغلى من ضعف ما كلفته من ثمن . وفى شهر سبتمبر عام ١٨٢٥ أرسل إليه فى مودون مسيو « جيتانو مارى » على ظهر السفينة التوسكانية « ثيسيوس » بقيادة القبطان « بوسنجوفيتش » شحنة من ٩ آلاف زوج من النعال المصنوعة على الطريقة المجرية . وكان الزوج منها يكلف نحو ١٠ قروش ، فجعل إبراهيم ثمنه للجند ريالين .

وكان يضارب فى أسعار العملة ، ويضطر فرق الجيش على أن تقبلها بالسعر الذى يفرضه . وبهذه المضاربة ، كسب يوما فى مودون نحو ٦٠٠,٠٠٠ قرش إذ استغل الأمر ورفع سعر الريال إلى ١٦ قرشا بينما لم يكن سعره يتجاوز ١٥ قرشا فى مصر .

وكان هذا الإتجار الدنىء وكانت تلك الصفقات الملفقة سببا فى أن ظلت فرق الجيش فى المورة ترتدى الأسمال وتعانى البؤس .

* * *

رحلتـه إلى فرنسـا

عندما قام إبراهيم باشا برحلته إلى فرنسا ، رويت عنه عبارة لو كانت قد صدرت عنه حقا لدلت على ذكاء قريحة لم أكن لأتوقعه منه . فعلى أثر زيارته لقصر « فرساى » وحدائقه ، قال انه لا يدهشه بعد ان رأى ذلك الا يكون الفرنسيون اهل دين وتقوى ، فانهم يملكون جميع ما وعد به المتقون فى الفردوس ، ديارا فخمة ، وجنات جميلة ، ونساء خالبات الحسن ، وانبذة لذيذة .

وقد تبدلت أفكار إبراهيم باشا بصورة غريبة اثناء زيارته لأوربا . وحين عاد إلى مصر ، كان ينوى إدخال تحسينات عديدة حال موته دون تنفيذها .

كان يريد أن يجعل من ميدان الأزبكية حديقة عامة ، وأمر بشراء آلة بخارية لرى هذه الحديقة التى لم يمهله الزمن للشروع فى غرسها .

* * *

وفـــاتــه

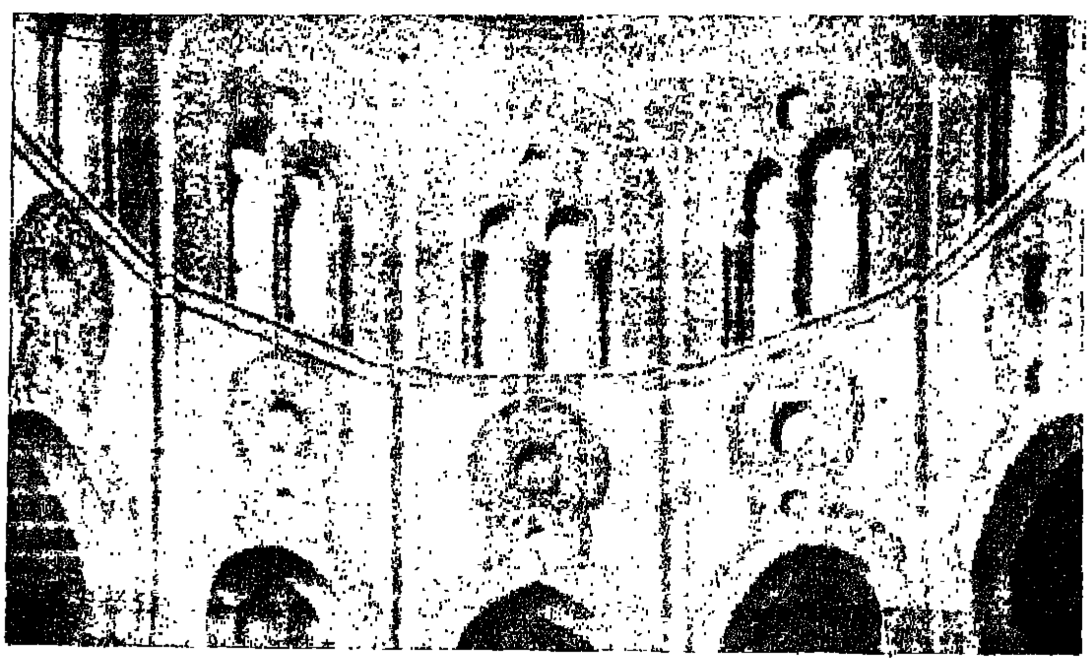
ينسب « بونفور بك » وفاة إبراهيم إلى إهمال عارض لا إلى انحراف فيه . فذات يوم زار حصون الاسكندرية بصحبة « جاليس بك » وعاد إلى القصر فى قيظ الظهر ينضح عرقا ، وجلس أمام نافذة فى مجرى الهواء يشرب الشامبانيا ، فنكأ ذلك ما كان قد أصابه من داء الرئة حين سافر إلى القسطنطينية ولم يكن قد برأ منه تمام البرء . وتفاقم الداء ثم اضطرته صدمة برد جديدة فى القاهرة إلى لزوم الفراش ، فرقد الرقدة التى لم ينهض بعدها . وقد توفى فى القاهرة فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ (١٤ من ذى الحجة عام ١٢٦٤) وهو يتمتع بثناء أقاربه ، بين يدى وكيله مسيو « بونفور » ، دون أن يفكر فى الموت ، بل قائلا انه لابد أن يبيع قطنه بثمن مرتفع ! .

* * *

رثـاء محمد على لإبراهيم

حين أنبىء محمد على بوفاة إبراهيم قال انه كان يعتقد دائما ان ابنه سوف يسبقه إلى القبر وان حفيده عباس سوف يخلفه على عرش مصر .

■ ■ ■



عبــاس باشا

نشأته :

ولد عباس باشا فى القاهرة عام ١٨١٣ . وكان الولد الوحيد لطوسون باشا الذى اختطفه موت مبكر من حنان أبيه محمد على . وكان الوالى الشيخ يؤثر عباس فى صباه بمحبة خاصة . فنشأ مدللا وأهملت ثقافته بين يدى مربيه التركى وما أحاطه من عبيد حريصين على إرضائه . وهكذا شب دون أن يلتفت إلى التجديدات التى أدخلها جده والتى كان يجد نحوها فى نفسه شعورا من الازدراء لازمه طيلة حياته .

ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى . ذهب يقدم فروض التهنئة لجده ، فجلس على الديوان واضعا ساقا على ساق ، وهو وضع لم يكن احد يجرؤ على اتخاذه فى حضرة الباشا الشيخ . واستاء محمد على الا يراه يسعى إليه ليقبل يده فى احترام ثم ينتظر حتى يأذن له بالجلوس . فسأله بأى حق أباح لنفسه تلك الحرية فى الجلوس . فأجابه :

— بحق الرجل الذى يعرف شرف أجداده . ألست باشا ابن باشا وحفيد باشا ، بينما أنت لا أجداد لك من الأشراف ؟

فأمره محمد على – وقد استاء لإجابته – أن يعود إلى جناحه ويلزمه إلى حين صدور أوامر أخرى . وفى اليوم التالى أرسله إلى معسكر « جهاد أباد » قرب الخانكة ليتلقى تربية وتعليما يناسبان آراء الوالى المجدد . وألحق بمدرسى اللغة التركية والفارسية والرياضة كولونيل فرنسى لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية الحربية ومدرس للتاريخ .

ولقطع الصلة بحياته الماضية ، أبعدت عنه حاشيته ، وعين مماليكه بالمدرسة الحربية ، وألغى فريق الصيد الذى كان يخرج فيه . وترك له حصانان ، ولكن بدل أن يسرجا على الطريقة الشرقية كالكرسى الوثير ، أجبر على أن يمتطيهما فوق سرج الخيالة . وذات يوم ، امتطى حصانه

الذى لم يكن قد اعتاد ذلك السرج ، فجمح الحصان وألقاه أرضا ، أمام كتيبة كانت تدق طبولها إيذانا بأن تؤدى له التحية العسكرية . فأمر - وقد أثارت غضبه تلك الحادثة - أن يوثق الحصان وأن يضرب بالعصا .

وبعد عشرة أشهر من الجهود غير المجدية ، إذ رأى الباشا الشيخ نفور حفيده من الفن العسكرى ، أعاده إلى القاهرة لكى يدرس الإدارة .

وظهر نفوره من نظم الفرنجة ومن زيهم فى كل مناسبة . وعندما أمر السلطان أن يرتدى جميع كبار موظفى الدولة الطربوش بلا عمامة « والفراك » « والبنطلون » والأحذية ، لم يرد قط أن يلبسها . وإزاء هذا الازورار داعبه الدكتور كلوت بك قائلا له انه لابد أن يتخذ ذلك الزى ، فشكاه إلى جده الذى أمر فى الحال بأن يقف الطبيب أياما ثمانية . وهو لم يلبس ذلك الزى إلا بعد ذلك بسنوات ، ولمجرد الرحلة إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الولاية .

وسرعان ما عين محمد على عباس على رأس الإدارة الداخلية ، حيث يصعب تصريف الأمور ، وحيث أبدى فهما نادرا لحاجات البلاد ومصالحها الحقيقية .

كان يضيف إلى شدة عزمه قسطا كبيرا من التلطف والولاء وكرم السليقة ، وجودا أصيلا ورثه عن أبيه . وكان بسيط العوائد حفيا يعرف كيف يؤلف بين أهل البلاد على اختلافهم . لقد عمدت بعض الصحف ، وقد ضللها أشخاص سيئو النية من الأوربيين الذين خابت آمالهم الطامعة ، إلى إذاعة أن حكمه كان يعوزه الذكاء والنظام . ولكن هذه الوقائع تكذب ما رموه به :

فمنذ شبابه تدرب على الشئون الإدارية والحربية وحكم مصر بوصفه وكيلا لمحمد على . وفى عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، حين أوشك وقوع الحرب بين الباب العالى ومصر ، وكان إذ ذاك محمد على فى « فايزوغلو » قرب خط الاستواء وإبراهيم باشا فى تخوم الممتلكات السورية ، عين محمد على ، لإعداد معدات الحرب حفيده حاكما عاما على مصر وحاكما لشئون سوريا المدنية .

وفى تلك الفترة التاريخية العصيبة أبدى فى الحكم من النضج وفهم الأمور ما استحق به إمارات الثناء من جده . ولكن طاب لأعدائه - ليثيروا ضده الرأى العام - أن ينشروا عن كرهه للنظم الأوربية أقاصيص كاذبة

سياسته

عندما تولى عمه إبراهيم باشا الحكم ، اعتزل عباس الحياة العامة وانتهز الفرصة لأداء فريضة الحج . وحين توفى إبراهيم ، كان عباس الذى آلت إليه الولاية ـ حسب رسم الوراثة العثمانى ـ ما يزال فى الحجاز ، فتألف فى اليوم نفسه مجلس من أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة لتصريف الأمور إلى أن يصل عباس . ولقد ابلغوه نبا توليته عن طريق القنصل الانجليزى الذى أرسل سفينة تجارية من السويس عاد على ظهرها الوالى الجديد إلى مصر بعد انقضاء بضعة أيام على وفاة إبراهيم . وكان فى استقباله عمه سعيد باشا الذى كان إذ ذاك فى القاهرة ، يصحبه جميع أصحاب المناصب الكبرى . وتمت مراسم المناداة بعباس باشا واليا على مصر فى قلعة صلاح الدين بحضور أهم أعضاء الأسرة وكبار الموظفين العسكريين وقناصل الدول .

وقوبلت توليته بابتهاج من جميع الشعب . ولقد بادر فبدأ حكمه باتخاذ بعض الإجراءات التى حققت جزئيا بعض ما كان الشعب قد رجا من أمل . رفع بعض المظالم الصارخة ، وكافأ عن بعض الخدمات ، واحكم بعض ما كان قد اختل من النظام . وفى ذلك ما يبرر الثقة العامة التى حازها فى أول أيامه . ومن بين تلك الأعمال يذكرون انه اعاد جماعة من الموظفين المفصولين من إدارات مختلفة دون معاش إلى وظائفهم .

بلغ عباس باشا السلطة فى اوائل عام ١٨٤٩ ، حين لم تكن لفرنسا اى سيادة فى الشرق ، وكانت قد سقطت مكانتها فى مصر . وكان يدير فى نفسه أفكار جده فى الاستقلال ، ولكن من ناحية إنشاء امبراطورية عربية وقد فاتح فى ذلك قنصل فرنسا العام مسيو « لموان » ، وساله ما إذا كانت الحكومة الفرنسية تؤيده ان هو حاول التخلص من التبعية للسلطان وأراد مسيو « لموان » ، قبل أن يرتبط بجواب ، أن يستطلع رأى الوزير الذى أجاب بالإيجاب . ولكن بعد فوات الأوان . فقد ضاق عباس بذلك التانى ، فافضى بنفس المشروع إلى قنصل انجلترا العام مستر « موراى » الذى وعده فى الحال بالمعونة والحماية ، وأصبح عباس صديقا للانجليز ، راجيا أن يتخلص فيما بعد من نفوذهم وذلك بإثارة العصبية العربية . وريثما يرد على سعى انجلترا ووعودها ، وجه نشاطا كبيرا واهتماما خاصا إلى إدخال جميع التحسينات الممكنة على

المواصلات والنقل بين القاهرة والسويس . وفي الوقت نفسه التمس التيقن من تأييد النمسا بأن أرسل إلى فينا طبيبهُ الدكتور « برونر بك » الذى كان خليقا بان يعقد له أواصر علاقة متينة .

لم يكن مطمعه الأوحد هو ضمان استقلاله وضمان عرش مصر لأولاده من دون أمراء أسرته الآخرين ، وإنما كان يداعب في الخفاء آمالا أعرض ويحلم بتكوين امبراطورية عربية .

وقد تحدثوا عن غرامه بإحدى البدويات دون أن يقدروا سبب هذا الزواج الغريب . وفى الواقع انه اقترن بأبنة واحد من اقوى رؤساء قبائل بلاد العرب فربط بقضيته جميع عرب الحجاز الفخورين بهذه المصاهرة . ولكى يحسن إخفاء علاقاته ، أمر ببناء قصر له فى صحراء السويس وآخر فى العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن أعين الرقباء ، وأن ينضج مشروعاته ويعد العدة لتنفيذها . وبعون قبائل شبه الجزيرة ، كان يمكنه ان يملى أحكامه لا على مصر فحسب بل على بلاد العرب ، وأن يقطع فوق ذلك على جيوش السلطان البرية طريق سوريا ، بينما كانت تحصينات الاسكندرية تحميه من أى محاولة لهجوم بحرى يشنه عليها الباب العالي . وبعد هذا كله ، كان يقدر انه فى حالة إخفاق مشروعه واجد ملجا امينا فى قبيلة زوجته الجديدة .

ولم يعرف الناس فى أوربا شيئا عن هذا المشروع العريض ، ولم يعرفوا قط أمر علاقات الباشا بمسلمي الهند الذين كان فى استطاعتهم إثارتهم ضد الانجليز كما حدث ذلك فيما بعد بوقت قصير ، ولم يروا فى هذا الاعتزال بالصحراء إلا بعض أهواء الوالى . ولما كان قد اغضب كثيرين من الأوربيين بإصلاحاته ، لم يفتهم أن ينالوا منه فى الصحف . ومن الحق ان اخلافه ـ كأخلاق جميع الباشوات ـ مادة طيبة لنقد الناقدين . ولكن مهما يكن من أمر ما يقال فيه ، فلقد كانت إدارته من أخصب الإدارات .

* * *

بغضه للأوروبيين

تشهد إصلاحات عباس باشا وأقواله شهادة علنية باحتقاره للفرنجة . وان جميع ما رآه منذ طفولته ليبرر مسلكه . لقد كان يريد أن يعود إلى التقاليد والأخلاق القديمة دون أن يهمل شيئا فى سبيل ذلك . ولما أثار غضبه ما كان يرى كل يوم من تغلغل العوائد الأوربية ، نهى مماليكه وجنوده عن تدخين السيجار والسجائر ، وإذ ضبط بعضهم متلبسين بما نهى عنه أمر بأن تخاط أفواههم ، ثم أمر بعد أربع وعشرين ساعة - حين رأى ان فى ذلك عقابا كافيا - أن تقطع الخيوط التى حيكت بها شفاههم . وقد روى لى هذه الواقعة الفظة طبيبه مسيو « ليو » ، ونشر النبأ على ما أظن ، فى جريدة « التيمس » .

ولقد دفعته روح الاستقلال عن الباب العالى بقدر ما دفعه كرهه لزى الفرنجة إلى استعادة الزى العربى ولكن فى جميع بهائه وبساطته الطريفة . واقتدى به المماليك فارتدوا جلاليب حريرية مطرزة و « كوفيات » موشاة بالذهب كان يرتفع ثمن عقالها إلى ٦٠٠ قرش . وعاد الترف الشرقى إلى الظهور ، إذا لم يكن فى روعة أبهته ففى أناقته النبيلة الجميلة .

ولم يكن يحب استقبال القناصل ، فإذا اضطرته المناسبات الكبرى إلى أن يتجشم عناء زيارتهم ، دعاهم إلى مادب عشاء طيبة على الطريقة الأوربية لم يكن يظهر فيها . فقد كان يتعشى بمفرده دائما . كان يتوارى ليتناول وجباته ويأكل على هواه ، أى كما يأكل الشره إلى حد ما .

* * *

عباس باشا والحيوانات

وتحدثوا كثيرا عن حبه للحيوانات . ولقد كان يقتنى بالفعل أحسن الجياد وأحسن الجمال فى مصر والحجاز . وبلغ من حرصه عليها انه لم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره . لم يكن عباس يمنع دخول داره بالعباسية ، كما يزعم « شارل ديديه » ، ولكنه كان من هواة الجياد فكان يخشى عليها شر العين الحسود ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأتراك ، ولذا اصدر أوامره لحرسه بالقبض على كل من يقترب من الحظائر .

وكان لعباس برج حمام تعمره أجمل وأندر الحمائم التى كان يستجلبها

من جميع البلاد . وكانت لديه أيضا عدة أجناس من الكلاب ، وعدة أنواع من الخراف والكباش ، وكان يحيط تلك الحظائر التى يعيش فى وسطها بعناية مترفة نزقة هى بعض صفات الأمراء الشرقيين ، فكانت حمائمه تحمل جلاجل من فضة ، وكانت كلابه تحمل أطواقا باذخة ، وكانت كباشه مصبوغة بالحناء مذهبة القرون . بيد أنه لا ينبغى أن تصدق ما يزعمه بهذا الصدد « ماكسيم دوكان » الذى يسيطر عليه خياله الخصب، ولا يعرف من مصر إلا مظهر الأحجار التى صورها بالته .

* * *

أخـــــلاقـه

أما أخلاق عباس ، فكانت كأخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الغلمان أكثر مما تدلل الجوارى . لقد كان عباس يستسلم لمجنونه فى الخفاء ، مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ، ولكن كرامته كانت تأبى عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد أو فلاح .

وكان قاسيا محبا للانتقام . رفض يوما طبيبه الدكتور « جاندى » أن يعطيه كمية من السم فكسر الخزانة واستولى على القارورة ، وسمم بها أحد مماليكه . ورفع الطبيب استقالته إلى الباشا الكبير ، وقبض مؤخر مرتبه . ولكى ينمى المبلغ الصغير الذى ادخره قام برحلة إلى سنار . وعندما علم عباس بسفره دبر اغتياله عند أول بئر فى صحراء البايوضة .

وكتب بعضهم ان عباس باشا قد تزوج راقصة شهيرة من راقصات القاهرة تدعى « صفية » وهذا خطأ فى ذكر الواقعة . لم يفعل عباس ، وقد خلبه جمالها ، إلا أن اتخذها خليلة له بعض الوقت ، ثم سرعان ما نسيها .. إلى أن عاد فتذكرها حين علم من قبيل المصادفة ان أحد الضباط فى حيازته « نرجيلة » فاخرة كان الوالى قد أهداها إلى عشيقته إذ ذاك ، فإذا به دون أن يتحرى كيف انتقل هذا الغليون إلى أيد أخرى ، يامر بالقبض على المراة التعسة وإلقائها فى النيل . ولم تنج « صفية » من الموت إلا حين باحت بفقرها الذى اضطرها إلى بيع جزء من متاعها . على أن ذلك لم يمنع من ضربها بالعصا وإعادتها إلى اسنا بين البغايا اللواتى عرفهم كثير من الأوربيين .

ولم يكن عباس باشا يجد راحته فى جو المدن . كان يتطلب هواء

الصحراء الطلق النقى ، وتشهد بذلك قصوره فى بنها والعباسية والدار البيضاء .

وكان القصر الذى ابتناه فى وسط السهل المجدب ، الذى يبدأ عند آخر مقابر السلاطين المماليك ويمتد بين الأراضى المزروعة وسلسلة المقطم قصرا أشد عزلة وكآبة من مخيم للبدو . فهكذا كان يعسكر مع موظفيه فى قصر بائس ، تحميه بعض قطع المدافع وفرق الجيش المرابطة بجواره ، بعيدا عن مطالب القناصل ، بعيدا عن توسلات الأوربيين ودسائسهم ، وعلى استعداد للنزوح فى أدنى لحظات السآمة .

وكان عباس منخفض الجبهة ، عريض الفكين ، له ذوق الأطفال ونزق المجنون ، وكان ورعا ، متطيرا ، تكسوه التمائم والتعاويذ من كل نوع .. ولكنها لم تستطع أن تحميه من ميتة فاجعة .

* * *

نهـــايـة عبــاس

وحانت نهاية عباس عندما اكتشفت الخطة التى كان يبيتها للتخلص من سلالة محمد على لكى يضمن وراثة عرش مصر لابنه من بعده . كان الأمر أمر انقلاب يودى بحياة خمسين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل ، وهو احتفال عظيم يجتذب جمهورا غفيرا . وأعطيت قائمة بأسماء الضحايا لخورشيد باشا . وفى ذلك اليوم ، على أثر تسليم مقود المحمل لأمير الحج ، كان مقدرا أن يتشاجر اثنان من رؤساء « الباشيبوزوك » وأن ينتضيا سيفيهما ، وأن يشترك فى الشجار رجالهما الموزعون بمهارة . وفى هذه الملحمة كان مقدرا أن يقتل عدة باشوات وبكوات وحاشياتهم . وكان مقدرا فى الوقت نفسه أن يتصنع عدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا فى وقت واحد دار حليم باشا ، عم الوالى ، وقصر مصطفى أحمد باشا وإسماعيل باشا ، ابنى عمومته ، كأنهم لاجئون يلتمسون المأوى ويقتلون جميع من هناك . هكذا فيما يقال ، كان عباس يريد أن يتخلص من مزاحميه ويمهد طريق العرش لابنه « الهامى » .

على أن القول بذلك ينبغى أن يؤيده الزمن أولا وأن يؤمن عليه قوم نزيهون قبل أن يسجل فى التاريخ . لأننا إذا صدقنا كل ما أشيع فى القاهرة ، رأينا أن الجميع كانوا يحيكون الدسائس إذ ذاك . فقد كان سعيد

باشا على الرغم من همود عزيمته يدرب على حمل السلاح بعض الجنود والبحارة . ولم تثر هذه الاستعدادات الحربية قلق عباس ولكنها أثارت حفيظته ، ولم يكن بد لسعيد من الالتجاء إلى السم وقاية لحياته وضمانا للعرش . وهذه الرواية أشد شبها بالحقيقة .

وكان عباس ذا بنية ضعيفة القلب ، ولكن وفاته لم تكن نتيجة سكتة قلبية كما قيل . فقد وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل الذى كلف بغسل جثته قبيل دفنه . وكان قد دخن فى الليلة البارحة « جوزة » محشوة بالشيرا (وهى مستحضر من الحشيش) ثم نام نوما عميقا . فانتهز القتلة تلك الفرصة . وعلى الرغم من ارتكاب القتل فى قصر بنها الذى كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس ، لم يعترض أحد سبيل القتلة فى فرارهم .

لقد أسرجوا جيادا وهربوا عابرين ثلاثة مراكز من الحرس يلتمسون مأوى لهم ، من حيث انطلقوا بعد ذلك دون أن يفكر أحد فى اعتقالهم .

ويقول أكثر الآراء انتشارا أن ميتة عباس كانت بأيدى مملوكين اكتراهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون أن مصرعه كان بأيدى أخوين أراد هذا المستبد الفاجر أن يجبرهما على ارتكاب الفعل الداعر الذى تروى الأساطير أن « المشترى » صنعه « بجانوميد » ، فرفضا ، فهددهما بشر العقاب لما يبديان من عصيان ، فخشيا أن يحيق بهما مصير عبد كان قد خصى فى الليلة السابقة ، وانتهزا فى نفس الليلة فرصة سكر الباشا وخنقاه .

ولكن وقائع كثيرة تشهد ضد خليفته . فقد منع سعيد باشا القيام بتشريح الجثة ، ودفع الطبيبين « ديامنتى » و « مارتينى » إلى توقيع شهادة بأن عباس قد مات بالسكتة القلبية . ولم يسع إلى تعقب القتلة . واقبلت أم عباس باشا على سعيد باشا باكية تسأله أن يثأر لولدها ولكنها لم تستطع أن تنال شيئا . وألقى القبض على رجل برىء لمجرد الشكليات .

وقد أراد إلهامى باشا ، ابن عباس ، أن يستجوب المماليك ، فلم يؤذن له . وبعد ذلك لم يتحدث أحد عن القتلة الذين لجأوا ـ فيما يقال ـ إلى القسطنطينية ، حيث دبر ابن عباس ، الذى يقيم اليوم هناك وقد تزوج إحدى بنات السلطان ـ أمر بقتلهم فى أحد المواخير

ان كل ما أشيع عن موت عباس غير صحيح - قال لى ذلك طبيبه الدكتور « ديامنتى » - فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ومات فجأة نتيجة لأزمة دموية . وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابه بعض أقوال مختلطة لم يفهماها قط ، وعندما رأيا سيدهما قد فارق الحياة هربا فى الحال إلى القاهرة خشية أن يتهما بقتله . وفى الصباح . إذ لم يخرج أحد من تلك الغرفة ، تقدم بعض رجال القصر فوجدوا عباس متصلب الجسد مثلوجا . فاستدعوا طبيبه الذى أكد انه مات بالسكتة القلبية منذ ست أو سبع ساعات . ولما كانوا يظنون انه مات مسموما ، ولم يستطع الطبيب ارتجالا أن يجيب بالنفى فقد اذنوا له بفحص الجثة ، ولم يكن عليها أى أثر للعنف كما لم يكن على الفراش أو فى المكان المحيط به ما يدل على ذلك .

وكان هذا الموت فى بنها يوم ١٤ يولية عام ١٨٥٤ (٩ من شوال عام ١٢٧٠) وأراد أحظياء الباشا - وعلى رأسهم سكرتيره وخازنداره - أن يكتموا أمر موته ، فوضعوا الجثة فى عربة لنقلها إلى العباسية ، واتخذوا جميع الإجراءات اللازمة لحفظ النظام باسمه ، ثم احتبسوا أنفسهم فى القلعة أياما ثلاثة قبل أن يصرحوا بفتح الأبواب .

* * *

عهد عباس

ودخل سعيد باشا القاهرة فى ١٧ يولية . وكانت قد أضيئت الأنوار فى قصر شبرا حيث اجتمع الكبراء لاستقبال سموه . وكانت البهجة عامة : فالعبيد يأملون دائما آمالا كبارا من تغير السادة . وكان الشىء الوحيد الذى يشفع لسعيد باشا هو حبه رفقة الأوربيين وانه تربى تربيتهم .

وبعد أن انقضى شهران على تولى سعيد ، أسف الكبار والصغار على موت سلفه . ذلك ان عباس كان إداريا صالحا ، جرى على يديه المال وجرت الحياة فى مصر من أقصاها إلى أقصاها . ولم يمدحه الأوربيون لانه لم يغدق عليهم أسباب الغنى ، ولكنه بوجه عام بدفع أجر من أدى له بعض الخدمات .

فلقد وجد - وكان فى ذلك على حق - ان الفرنجة قد خدعوا جده فى أكثر الأحيان فكان عليه أن يحذرهم . ولم يكن يمنح ثقته باستخفاف ، بل طرد

من الخدمة عدة أوربيين أرادوا ـ وقد ازدهتهم معارفهم ـ التدخل فى شئون الحكومة أو ازجاء النصح له دون أن يسألهم نصحا .

وقد فاجأه الموت وهو يفكر فى مشروعات كبيرة : هب انه لم يكن يتآمر للقضاء على جميع أعضاء أسرته الخليقين بأن يطالبوا بالولاية على مصر ، فقد كان يفكر فى أن يضمن العرش لولده ، الذى كان قد أرسله منذ وقت قصير إلى أوربا لكى يعقد فيها أواصر علاقات دولية بقدر ما يتثقف فى شئون الحكم .

■ ■ ■



لقد تعمق إدريس فى الحياة المصرية
حتى الحياة فى الحرم وصفها وصفا واقعيا

سعيد باشا

الابتهاج بتوليته

قال أحد المصريين سنة ١٨٥٨ عن الأنوار التى أوقدت بمناسبة توليته : « ان الزيت الذى أوقدناه احتفالا بجلوسه ندفع ثمنه دموعا منذ اربع سنوات » .

وفى الواقع ما خيب عهد آمالا انعقدت عليه خيبة أَمَرَّ من مُلْكِ سعيد ، وما كانت مصر أسوأ حكما ولا أبأس حالا منها فى أيام هذا الأمير الذى رباه اوربيون لم يحسنوا إلا تملق نزواته ، والاغضاء عن رذائله بل تشجيعها .

* * *

تربيته وصفاته

فيما عدا اللغة الفرنسية التى يتكلمها بطلاقة ، لم ياخذ سعيد شيئا عن الأستاذين « كونيج » و « هوزار » . ولكن الأستاذ « كونيج » عرف كيف يغتنى ، أما الأستاذ « هوزار » فقد مات قبل تولى سعيد ، ووعد سعيد أرملته بمعاش تتقاضاه مدى حياتها غير انه لم يصرف لها ابدا . ولما حضر ابن الأستاذ « هوزار » إلى مصر عام ١٨٥٨ ، اكتفى صاحب السمو بإهدائه سيفا بوساطة مسيو « ساباتييه » .

ولم يأخذ سعيد أيضا من عشرته للأوربيين دروسا فى سلامة الذوق . فان القصر الذى ابتناه فى « المكس » وكلف بتشييده مهندسه مسيو « مونتو » قصر من طراز « الروكوكو » قد انتشرت فى عمارته كالشوك نحوت منقولة طبق الأصل عن « الانفاليد » مذهبة شديدة السرف فى الطلاء بالذهب .

ولم يتعلم منهم سعيد باشا اللباقة والأدب . فانه غليظ اللغة والعادات لا يرعى حدا ولا اعتبارا . وكثيرا ما يلقى عبارات قذرة فى حديثه . ذات يوم كان جوابه لكلوت بك الذى اقبل يحمل إليه تحيات من طرف الأميرة ماتيلد :

— وماذا تعمل هذه البغى ؟ (باللغة الفرنسية) .

ورغم انه وقح مع الجميع ، فانه لا يبيح لأحد أن يخاطبه بنفس اللهجة .

وانك لتتقدم حين تحصل على الإذن بالدخول إلى سموه ، وتنتظر أن يتفضل السيد بالالتفات إليك أو أن يومىء لك بالتحية ، ولكنه إذا كان لا يريد أن يفطن إلى وجودك ، أدار لك الجميع ظهورهم وانصرفوا عنك : فأنت إذن من المغضوب عليهم .

وليس لسعيد باشا من اللباقة وحسن التصرف ما يلزم لمن يكون فى مركزه ، فكثيرا ما يسىء استقبال شخصيات كان ينبغى أن يظهر نحوها قدرا من الاعتبار أو أن يتكلم عنها فى تحفظ .

وسعيد خفيف العقل قليل التبصر ، يتحدث عن شئونه أمام الأجنبى كأنه يتحدث إلى أمين سره . وهو فوق ذلك شديد النزق ، ومن كان حظيا لديه يوما لا يظل فى حظوته تلك أمدا طويلا .

وعلى الرغم من تثقفه بالعلوم والفنون الأوربية ، وهو امتياز لم يتيسر لأحد من أسلافه ، فقد أهمل جميع المؤسسات التى أنشاها محمد على وإبراهيم باشا ، وتركها تختنق . لقد نقلت أخيرا جميع أدوات المرصد إلى أحد مخازن الذخيرة ببولاق ، وأحيل الفلكى العربى إلى هيئة المهندسين . وأصبحت ورشة تصليح أدوات علوم الرياضة ورشة لصنع القذائف الفارغة . وكل شىء فى سبيله إلى التلاشى جزءا بعد جزء .

* * *

وظيفة جديدة للجيش ؟

وحل محل الجيش الباسل الذى أرغم السلطان على التسليم جيش من الماجنين يتعذر أن يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة أولا . وإلى جانب جنود يلبسون الاسمال ، يرى المرء كتيبة فاخرة من الغلمان تمثل دور الجندى أثناء النهار ، وتؤدى أدنى أدوار الفجور أثناء الليل .

ويزعم متملقون أنه أحل التجنيد النظامى محل الضغط ، غير أن جيشه منتخب قبل كل شىء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة . ولم يشنق من شنق من شيوخ القرى نتيجة لرفضهم تسليم أبنائهم للجندية ، بل لانهم أرادوا إنقاذ أبنائهم من مجون الوالى الذى يجند الجنود ليملأ بالغلمان حريما له .

* * *

الضبـط والربـط

وفى الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ عندما كان سعيد باشا فى منفلوط ، وجد اثنان من الجنود انهما بجوار قريتهما فذهبا إليها لرؤية أهلهما وأنفقا الليلة معهم . فلما عادا فى الصباح ألقى القبض عليهما . وأمر سعيد باشا ، دون أن يحيلهما إلى مجلس عسكرى ، بأن يرميا بالرصاص . فصوب الجنود الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم المستهتر بندقياتهم بحيث يتفادون قتل زميليهم . واحتد غضب الباشا فأمر بربط كل منهما إلى فوهة مدفع وإطلاقه ، وحكم على الجنود المتسامحين بالأشغال الشاقة

* * *

الشــره

وسعيد باشا يحب الفواكه ويكلف بها ، ويرد إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من اوربا . ويقولون انه ينفق ما ينيف على ١٢ ألف فرنك لإرضاء نهمه . وعند فتح صندوق من صناديق الفاكهة ، تراه أحيانا ينقض على الثمار فى شره المنهوم يلتهم واحدة بيمناه ويمسك أخرى قد انتقاها بيساره ويشتهى الباقى بعينيه .

وهناك واقعة تشهد أكثر من سواها بسفاهة الباشا ، وهى الأمر الذى أصدره إلى مدير مستشفى قصر العينى بعدم فرض طعام المرضى القليل على أى جندى . فالجنود أحرار فى تناول جميع ما يريدون وبالقدر الذى يريدون . وممنوع على الأطباء أن يصفوا لهم ضمن علاجهم الحمية من الطعام وتناول نصف وجبة او ثلاثة أرباع وجبة . وبلغ من شدة عطف سموه على جنوده الذين يشاطرونه لذاته وأعماله ويدفعون عنه ما يحدق به من خطر أن عين لهم طاهيا خاصا ومائدة خاصة فى المستشفى .

اهتمامه بمصالح مصـر !

واهتمامه بمصالح التجارة أكذوبة من أكاذيب « دى ليسبس » وشركاه . ذات يوم شكا بعضهم إلى سعيد باشا من قلة انتظام السكة الحديدية التى لم تعد تسير قطرها إلا لحاجات سموه الخاصة ، فأجابهم :

— اننى شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية . ولكن هذه السكة الحديدية ملكى ، ولى أن أفعل بها ما أشاء .

ولا يشغل بال سعيد أن يخلف وراءه اسما شريفا وسعادة للشعب الذى عهدت به الأيام إليه ، وإنما التكديس والاستمتاع هما شغله الشاغل .

قال لسليمان باشا :

إن نصائحك طيبة جدا ، ولكنى قبل كل شىء أريد أن ألهو ولا يعنينى ما بقى بعد ذلك ، وليكن من بعدى الطوفان .

وقد حرم جمهورا من المستخدمين الشيوخ معاشهم ، منكرا ما أدوا من خدمات .

مصرع أحمد باشا :
حادثة كوبرى كفر الزيات

ان موت أحمد باشا ابن ابراهيم - ولى العهد - يثير شبهات كثيرة حول سعيد . كان أحمد يفعل خيرا جما . كان جوادا يهب هبات عريضة وهو يدير أملاكه فى اقتصاد . ومات مأسوفا عليه لان ملكه كان يعد مصر بمصير أسعد مما استطاع أسلافه أن يؤدوا لها . فليس من بين سلالة محمد على أو إبراهيم من يعد مصر بحكومة أبوية صادقة الحدب .

ولم يبد سعيد باشا أسفا على موت أحمد باشا ، بل كان مما قال : « ان اليتامى الذين كان يعولهم سوف يبكونه » . وغضب على أدهم باشا الذى تحسر لفقد أحمد .

وتحوى إحدى الصحف الصادرة فى مالطة فى ١٨ يونية - على ما أذكر - مقالا أثبتت فيه ان موت أحمد باشا كان قد أمر به سعيد .

وأقر لى مهندس انجليزى انه قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام ، صدر الأمر بالحفر حفرا عميقا عند أسفل أعمدة القنطرة دون أن تستدعى ذلك حاجة ظاهرة ، فقد كان هناك من الماء ما يحمل أشد السفن . ولولا العمل الذى حفر هوة ابتلعت عربات القطار ، لجاوزت العربة الثالثة - التى كانت تقل أحمد باشا - مستوى الماء ولنجا وارث العرش .

وقبل وقوع الحادث ببضعة أشهر - ومن المحتمل أن يكون ذلك فى الوقت الذى اختمرت فيه فكرة هذه المؤامرة الرائعة - سرح سعيد باشا « جريم بك » مدير السكة الحديدية الانجليزى ، وأحل محله « نوبار بك » وهو فتى أرمنى ، وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده .

* * *

شقــاء مصــر

ان شقاء مصر الأكبر مصدره نظام وراثة عرشها الذى وضعه السلطان . فإن ولاة مصر الذين خلفوا محمد علي كانوا يعلمون ان ابناءهم لن يرثوا الحكم ، فاهتموا بثرائهم أكثر مما اهتموا برفاهية مصر . انهم يفكرون في ملء خزائن أولادهم ، أو في أن يضمنوا لهم العرش ، ولا يفكرون قط في إسعاد المصريين .

وإدارة سعيد باشا اسوأ من إدارة عباس . تبلغ ديون الوالى الحالى أكثر من ٦٠ مليون ريال (٣٠ مليونا من الفرنكات) . وهو مدين بمثل هذا المبلغ للجيش الذى لم تدفع له مرتبات منذ وقت طويل ، وبمثله أيضا لتجار مختلفين . وباتت شركة الملاحة للبحر الأحمر عاجزة عن القيام بعمل أى شيء لان الوالى لا يمدها بالمال اللازم . لقد أنفق أثناء السنوات الأربع التى قضاها على العرش أكثر من ٤٠٠ مليون ، ويدين بحوالى ٨٠ مليونا . ولم تدفع للموظفين مرتباتهم منذ عشرة اشهر . وهناك تفكير في أن يخصم منهم مرتب ثلاثة اشهر كما حاق بهم من قبل .

* * *

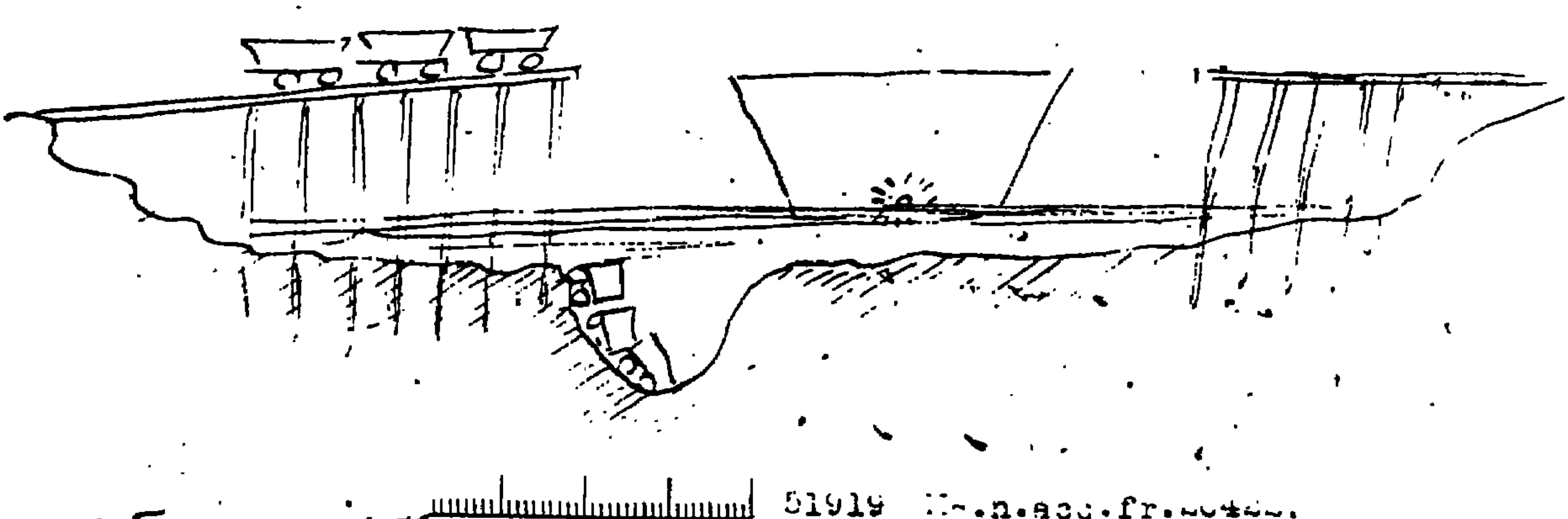
١٥ يولية ١٨٥٨

مر سعيد باشا امس في « السكة الحديدية » دون أن يلتفت إليه اى عربى أدنى إلتفات ، فإلى ذلك الحد اصبح هذا الرجل محتقرا . ولم يحيه إلا بعض الأوربيين . وعندما وصل إلى القلعة ، قذف جمهور من العرب عرائض في عربته ، فالقاها خارج العربة قائلا لهم انه لن يصرف لهم مرتبات قبل شهر « توت » .

وأباح أخيرا أحد القناصل لنفسه أن يبدى بعض الملاحظات للباشا بشأن مرتبات الموظفين المتأخرة ، فأجابه :

— انك تدهشنى . لقد دان أبى بمرتبات أربعين شهرا للمستخدمين دون أن يجرؤ أحد على أن يبدى له ملاحظة . وأنا أيضا أرى ان أحكم كما يطيب لى .

■ ■ ■



حادثة كوبرى كفر الزيات
(رسم تخطيطى لإدريس أفندى)

ولقد قدر مبلغ ما ينفقه سعيد في نزواته الجنونية المتنوعة فكان في اليوم الواحد أكثر من دخل مصر في اليوم الواحد .

كذب المنجمون ..

كتب المدعو « شيا أفندى » الموظف بنظارة الحربية أنه قرأ طالع سعيد باشا فاظهر ان وفاته ستحين سنة ١٢٧٥ هجرية التي بدأت في ٩ أغسطس سنة ١٨٥٥ . وقد صودرت هذه الرسالة ، وصدر الأمر بنفي « شيا » إلى فازوغلي ، أي بإلقائه في النيل اثناء الرحلة . وفي الوقت نفسه صدر الأمر باعتقال جميع السحرة والمنجمين وضاربي الرمل . ومن ضمن هؤلاء التعساء الذين بلغ عددهم ثمانين شخصا ، كان الشيخ « على الليثي » وهو عالم كان يشتغل بعلم التنجيم كغيره من العلماء ، إلا أنه كان خدين أحمد باشا ، ومن المحتمل أن يغرقوه كما أغرقوا سيده .

موظف كبير !

ان الطريقة التي بها يجعلون موظفا يقفز من منصب إلى آخر جديرة بالملاحظة .

عابدين باشا موظف في سك النقود كان قد بلغ مرتبة البكباشي وهو في السابعة عشرة من عمره . وأصبح سكرتيرا خاصا لعباس باشا ، ثم غضب عليه الوالي فنقل رئيسا لجوقة موسيقى « المفروزة » أي فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لاقليم الجيزة ، وكثيرا ما رآه الناس يفر من مكتبه مصطحبا حجابه ، إلى حيث يلهو على شاطيء النهر .

تبذير .. وتقتير

اصطحب سعيد باشا في رحلته إلى « طيبة » للاحتفال بعيد ميلاده ٣٧ سفينة بخارية ، كانت آخرها تحمل مسرحا للتمثيل .

وتدر مصر حوالى ٢٥ مليون ريال (١٢٥ مليون فرنك) على الباشا الذى يحكمها ولا يفعل شيئا في سبيل خيرها في الحاضر ولا في المستقبل . ولا يسعى سعيد إلا لتكديس المال ثم تبذيره مع « برافى » و « باستريه » و « دى ليسبس » ويقال أنه أودع أخيرا مائة ألف جنيه في أوربا (٢٥٠٠,٠٠٠ فرنك) .

وهو لا يتردد فى استخدام اى وسيلة من شأنها ان تزيد ثروته . أمر منذ عام ونصف العام تقريبا بإنشاء سجل جديد لمصر ، فقد طلب أن يرى المقياس الزراعى المعروف « القصبة » ، ونظر فيها فبدا له انها أطول مما ينبغى ، وكسر من أحد طرفيها قطعة تبلغ نحو عشرة أصابع قائلا :

— منذ الآن ، يكون هذا طول القصبة .

وبهذه القصبة قيدت الأملاك فى مصر . وقد زاد هذا المقياس الزائف دخله بنسبة العشر .

وانا أقدر هذه النسبة على أساس من الواقعة التالية :

كان مسيو « دروفتى » (قنصل فرنسا) قد نال من محمد على أبعدية مساحتها ٣٠٠ فدان فى الفيوم . فلما جاء ابن القنصل سنة ١٨٥٨ يطالب بالامتياز الممنوح لوالده ، وجد أن الأرض التى كانت محددة المساحة فيما مضى تحوى ٢٣٠ فدانا حاليا .

جبـايـة ضـريبـة

أراد سعيد باشا فى أول عهده أن يجبر بعض قبائل الصعيد على أن يدفعوا « الميرى » عن الأراضى التى يزرعونها ، وكان محمد على قد اعفاهم من هذه الضريبة لقاء خدمات أدوها له أثناء حرب الشام . فلما رفضوا ، سير إليهم سعيد باشا فرقا من الجيش هزمتهم . فأذعن الشيوخ على شرط أن يؤمنهم على حياتهم ، غير أن سعيد لم يرغب فى التصديق على هذا التعهد ، وأمر بإعدامهم . ورفض الباشا المكلف بقيادة تلك الحملة تنفيذ الأمر ، فعزله ، وأمر بربط عدد من رؤساء تلك القبائل إلى فوهات المدافع وإطلاقها ، ثم أرسل الآخرين إلى الأشغال الشاقة بالاسكندرية حيث عومل هؤلاء التعساء أقسى معاملة . وبعد انقضاء بضعة اشهر ، قال للباشا طبيبه « لاوتنير بك » ان أولئك المساكين قد أشرفوا على الهلاك ، فأجابه الباشا :

— وهل تظن اننى احضرتهم إلى هنا للإبقاء على حياتهم ؟

وهذا العمل الذى افتتح به سعيد عهده قد بدد الآمال التى عقدها أصحاب النية الحسنة والقلوب الطيبة على أمير رباه الأوربيون . والآن لا يسبح إلا مسيو « دى ليسبس » وفرقته بحمد الباشا الذى يملأ بالمال خزائنهم .

× × ×

المجـون الرسمى

لقد جرى سعيد على أن يستخدم أوسمته استخداما غريبا لا ينبغى أن نصمت عن إذاعته لكى يعتبر بذلك الملوك الأوربيون الذين يقذفون إلى درك العار بهذه الشارات المشرفة إذ هم يمنحونها لأمثال هؤلاء الداعرين . ففى ليالى المجون الكبرى يخلع ثيابه ويظل عاريا كجميع غلمانه ، فيقلد أحدهم وشاح « جوقة الشرف » والآخر رباط سان موريس أو « سان لازار » أو شاح « البرج والسيف » البرتغالى ، ويلهو بأن ينتهك صاحب الجلالة الامبراطورية أو جلالة ملك هذا البلد أو ذاك . ولما كان يقوم طورا بالدور الإيجابى وطورا بالدور السلبى ، فليس يحق لأحد ان يستاء .

* * *

ولا يتخذ سعيد حرسه إلا من فتيان تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٦ سنة . وفى الصباح ، يرى المرء نحو ستة من حرس الباشا خارجين من جناحه ، وقد انهكتهم ليلة من المجون أكثر مما ينهكهم نهار من التدريب العسكرى .

ويعطى سموه خواتم من الماس وساعات ذهبية لأولئك الذين يخضعون لنزواته . وذات يوم أراد أحد هؤلاء الجنود أن يبيع جوهرة فأدى ذلك إلى اعتقاله على أثر اشتباه الصائغ الأوربى فيه وظن أن الفتى قد سرقها . فصرح الجندى بأن الباشا هو الذى منحه ذلك الخاتم . ورفعوا الأمر إلى الباشا ، فقال :

— ألست حرا فى أن أعطى الهبات لمن أشاء ؟

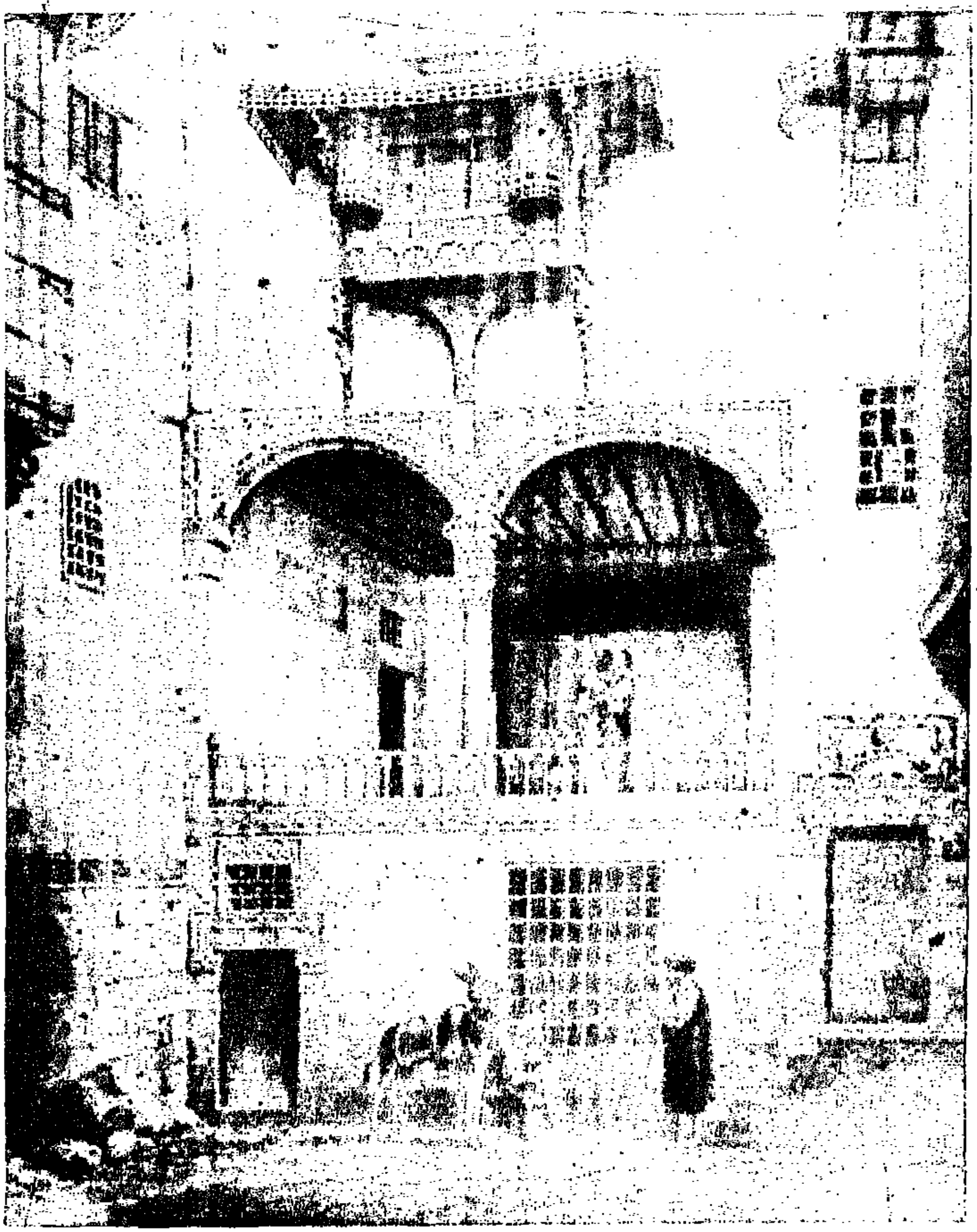
مبـــادىء الحــكم !

لقد أمر سموه اخيرا بدفع مرتب موظفيه عن ستة اشهر ، بينما هو مدين لهم بمرتباتهم عن اثنى عشر شهرا (١٠ ديسمبر ١٨٥٨) .

وهذا هو التعليل العجيب الذى ذكره سموه لواحد من الأوربيين كان يحدثه عن بؤس الموظفين :

— ان فى الاستبداد ضمان القوانين وحياتها . فلو اننى كنت أدفع للجيش وللموظفين مرتباتهم بانتظام كما هو الحال لدى الافرنج إذن لطردونى من البلاد عندما تحين أول لحظة تضطرنى فيها الظروف إلى تأجيل الدفع . فالأفضل هو التصرف كما نفعل . وهكذا لن يجرؤ موظف

على أن يترك مركزه ، ونحظى بالرضا الشعبى بعض الوقت كلما أمرنا بصرف المتأخر من مرتبات الموظفين على غير ما يتوقعون . أما إذا كانت هناك ميزانية فلن نستطيع أن نتصرف كما نشاء فى المال العمومى ، ولا أن نظفر بخدمات الرجال الذين نحتاج إلى طاعتهم ولا يستحقون أن نخضعهم بالعنف .



منظر داخلى فى بيت مصرى
خلال القرن التاسع عشر بريشة إدريس أفندى

إسماعيل باشا

مما يجدر بالملاحظة انه من بين جميع أبناء الباشوات الذين تربوا فى أوربا لم تظفر مصر بمواطن واحد ممتاز . فلقد أنهكوا أجسامهم جميعا فى المجون ، وأخذوا جميع عيوبنا دون أن يكتسبوا واحدة من صفاتنا أو فضائلنا .

لا يصلح أبناء شريف باشا إلا للتكبر عليك والجرى وراء البنات .

وقد أعطى إسماعيل باشا ابن إبراهيم للدكتور « بروجيير » كتاب « وصف مصر » قائلا له :

— أرحنى من هذا الكلام الفارغ .

إسماعيل باشا محب للانتفاع إلى حد كبير . ان هباته الكريمة ناتجة عن غروره ، ولكنه لحز شحيح .. فهو يتذكر أدنى نفقاته . قال يوما :

— كلفنى غدائى مع نوبار فى القهوة الانجليزية التى قصدناها متنكرين ١٣٧ فرنكا و ٥٠ سنتيما .

عندما سافر الوالى إلى فيشى فى أغسطس عام ١٨٦٧ ، جمحت الجياد التى كانت تجر مركبته فى بعض الطريق . وكان فى صحبته « نوبار » و « شارل ادمون » فرجياه ألا يرتاع وألا يخشى شيئا ، ولكن خوفه دفعه إلى أن يقذف نفسه خارج العربة فسقط فى الوحل . وقبل أن ينزل نوبار ليعينه على النهوض قال لصاحبه :

— ها هو ذا فى معدنه .

وعلى اثر عودة الباشا إلى مصر ، وقد صده أصحاب الأموال الذين حاول الاستدانه منهم ، خفض مرتبات موظفيه . وكان نوبار ضمن من شملهم هذا الإجراء ، فاستاء وعزم على ترك الخدمة . ولكنه مضى فاستشار إحدى قارئات الغيب فى أوراق اللعب ، وبناء على آرائها قرر البقاء .

■ ■ ■

الفهـــرس

الصفحة

الجـــزء الأول

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

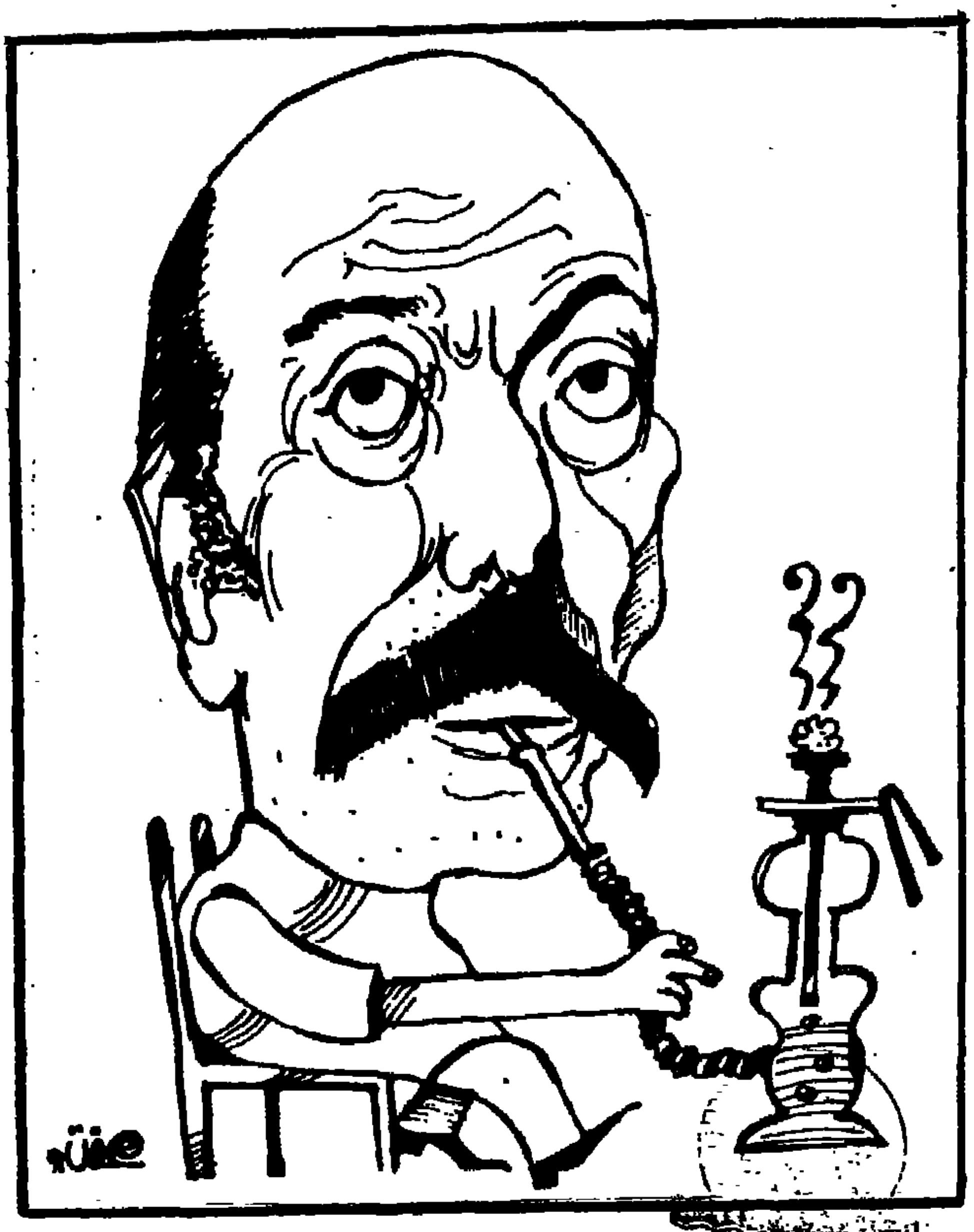
رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٦ / ١٩٩١
الترقيم الدولى ISBN — 977 — 08 — 0132 — 1

الجــزء الثــانى

من محمد على إلى إسماعيل

● كتاب اليوم ● عدد أغسطس

حمار من الشرق



للكاتب الساخر :

محمود السعدنى

● ترقب صدوره ●



المنظف العملاق سانتو ٢٠٠٠

يد الذى يغسل ويطهر ويعطى بياضا ناصعا وألوانا زاهية فى آن واحد ..
بعد ابحاث علمية دقيقة شركة الاسكندرية للزيوت والصابون